

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة وهران السانية

قسم اللغة العربية وآدابها



كلية الآداب، اللغات والفنون

إشكالية المصطلح في النقد العربي المعاصر

رسالة لنيل شهادة الماجستير

إشراف
أ.د. الشيخ بوقربة

إعداد الطالب:
محمد صامت

أعضاء لجنة المناقشة

نوقشت يوم 02 فبراير 2008

د. بلقاسم الهواري.....جامعة وهران.....رئيسا
أ.د. الشيخ بوقربة.....جامعة وهران.....مشرفا و مقرا
د. اسطبول ناصر.....جامعة وهران.....عضوا مناقشا
أ. إبراهيم علي.....جامعة وهران.....عضوا مناقشا

السنة الجامعية 2007-2008

(إهداء)

- إلى اللذين ربياني صغيرا " أمي وأبي " .
- إلى رفيقة الدرب " الزوجة الكريمة " .
- إلى ثمرة الفؤاد " نسرين " وإلى رحيق العمر " أكرم عبد الصمد " .
- إلى فاطمة ، زهرة ، جيلالي عربون أخوة ومحبة .

(شكر و عرفان)

أتقدم بالشكر الجزيل والعرفان الخالص إلى
الأستاذ المشرف : دكتور الشيخ بوقربة على
رعايته لهذا البحث وتوجيهه ، كما أهنته بمناسبة
حصوله على درجة الأستاذية .
وشكر و عرفان للأستاذ عبد القادر قيدوح على
مساعدهاته ، وأتمنى له عودة سريعة إلى أرض
الوطن ، كما لا يفوتني أن أتقدم إلى بتشكراتي
الخالصة إلى كل أساتذة قسم اللغة العربية وآدابها
بجامعة وهران .

المقدمة

مقدمة

ينزع بحث إشكالية المصطلح في النقد الأدبي العربي المعاصر إلى ملامسة الغايات العلمية الدقيقة والتي قد تستوجب بعض الإجابات الاضطرارية الملحة من ذلك لا يمكننا تفادي مواجهة إشكالية مدى درجات العلمية أو المعرفة الدقيقة التي يمكن أن يتمتع بها التفكير الأدبي ، وإلى جانب ذلك لا يمكن إغفال مدى تكامل المعارف الإنسانية الروحية على اعتبار أنها جميعا تتماهى إلى جهة النفس والانفعال والشعور والحدس وما شاكلها من التسميات الروحية الأخرى ، وبالنظر إلى التحفيزات البحثية التي يغري بها موضوع إشكالية المصطلح في النقد الأدبي العربي المعاصر فإننا لا نملك أسباب تجنب التساؤل عن مدى النسبة الحميمة التي يلمسها كل باحث بين الأدب من منطلق الإبداع والبلاغة والفن ، وبين جانبه الآخر الذي هو الرؤية العلمية والتقييم المنهاجي للممارسة الفنية الأولية بالقدر الذي يمكن تخريجه على أنه إجراء علمي لتوجيه القراءة النقدية . إذا فما المواصفات الإبداعية التي تحكم كلا من الوظيفتين : الإبداعية والنقدية ؟

لقد تصوّرت إشكالية بحث الإشكالية التي اخترتها رؤية نقدية في معالجة موضوع المصطلح النقدي فتبين لي أن تداول الموضوع مفض ومنته إلى وظيفة المعاينة والشرح والتحليل فهو لا يتعدّاها إلى ما سواها من الغايات البحثية والمنهاجية ، لعني أشفع هذا المجهود الأولي في الموضوع بمتابعات نقدية بحثية أكون خلالها قد استفدت من هذه المساهمة التي ارتأيت فيها إمطة اللثام عن أجواء الاعتمادات الثقافية والاجتماعية التي اكتتفت أولية تعاطي ثقافة الاصطلاح النقدي في الأدبية العربية المعاصرة أو الحديثة.

لقد نحت الدراسات النقدية الأدبية لجهة توظيف المصطلح النقدي ابتغاء توفير الشروط شبه العلمية التي تمنح التفكير الأدبي العربي مصداقية الوظيفية ، ومن ثمة فهي بتلك المقاربة عاملة على تأهيله لاحتمال الغايات الحضارية والإنسانية التي دأبت آداب الأمم الأخرى على الاضطلاع بها ، ونعتقد أنّ العقلية العربية الحديثة التي واكبت مجريات التحول في الفكر الإنساني الحديث قد طمحت بتوخيها التجدد والتطور والمغايرة إلى كسب المصداقية العالمية ، ويبدو من البدهي أنّ الدراسات الإنسانية قد باتت تتعت بكلّ تفهقر وانكفاء في نظر رواد العلوم التجريبية الأخرى الذين باتوا أكثر من أيّ وقت مضى يراهنون على النتاج المعرفي الذي يخدم الإنسان بصورة أكثر مباشرة وواقعية.

ويكون من حظ المعرفة الأدبية العربية أنّها دائمة النزوع إلى الاستجداد فكلّما طرأ طارئ في حقول المعارف الإنسانية تطأب التكيف والملاءمة في شأن التطور الفكريّ الإنساني الحديث لأنّ في ذلك الاستدعاء تتمة لشروط الإنسانية تعزيزاً وملاءمة .

وانطلاقاً من حقيقة هذا الأمر فإنّ النزوع النقدي الاصطلاحي العربيّ ما فتئ يتبلور منذ قديم التجارب الأولية ليس لشيء إلا كونه ينتمي لحقيقة الانفعال الإنساني الذي تكون الدّات العربية إحدى أهمّ مكوناته العالمية.

ويمكن للباحث أن يعتمد الطرح النقدي الاصطلاحي من زاوية كون هذا الحقل المعرفي الجديد كفيلاً بأن يحيل على الإجراء الوظيفي والتطبيقي في حيّز الثقافة النقدية المغايرة للمعيارية البلاغية التراثية ، لقد صارت

القراءة النقدية الحديثة مستعينة بأدوات إجرائية والتي يعتبر المصطلح النقدي أحد أبرز تلك المستجدات المنهاجية .

لقد سجلت الإسهامات الدراسية في حقل التوظيف النقدي الاصطلاحي توجهًا تعريفيًا بالغ الحساسية ظلّ يتبناه الناقد الأدبي العربي باعتباره يقرّ ضمناً بأنّ فعالية المعرفة الثقافية والعلمية العربيتين لا يمكنهما أن تكونا في هذه المرحلة إلا عبارة عن رؤية تجريبية ستظلّ تلقي بالمصطلح التجريبي في كلّ مناسبة يضطرّها فيها الموقف الأدبي أو الموقف الفكري للمغامرة والتطوُّع وانطلاقاً من هذا الحسّ الراسخ الثابت في جلّ الدراسات النقدية العربية الحديثة التي اتّسمت بالريادة والافتتاح والمغامرة منبثاً على مفهوم الاقتراح مثلما ظلّ يعلن ذلك رواد النقد الأدبي الاصطلاحي مثلما ورد في كتاب عزّ الدين المناصرة حين تناول موضوع النقد المقارن في الوطن العربيّ .

ويستطيع المتفكّر في سيرورة الأدبية العربية الحديثة أن يعرف أنّ طه حسين قد ظلّ إلى وقت متأخّر من حياته الأدبية والنقدية يقف الموقف الحساس من عالم المصطلح بالنظر إلى ما ارتآه لاحقاً بعوالمه من المغامرة والنسيب ، فقد دفعه الارتياح من ذلك إلى أن يظلّ مصرّاً على رفض الاعتراف بمصطلح الرواية من حيث ظلّ يسميها المسرحية ، وطه حسين هو من هو حين يقارن موقفه من الثقافة الغربية بمواقف غيره من الأدباء العرب المجاليلين له حين نعرف تأليفه مستقبل الثقافة المصرية".

ويستطيع الذي يقرأ بحث إشكالية المصطلح في النقد الأدبي العربي المعاصر أن يقف على وجهة في تداول مقتضيات الموضوع تتصل جميعها بالمقدّرات الثقافية والعلمية التي أسست لنظريات النقد الأدبي العربي المعاصر أو الحديث ، ولقد سعينا إلى تفهّم هذين المحورين أي محور المعاصرة ومحور الحداثة على أنهما متكاملان يتواشجان في أكثر من منزع، ويترافدان في كثير من الغايات التي يصبو إليها البحث النقدي .

ولقد كان لزاما علينا أن نهتدي في بسط أسباب الدّرس النقدي الاصطلاحي بالبوادر التراثية القديمة في الموضوع ساعين إلى بسط أسباب الترسّخ والتّوطيد مثلما دأب الباحثون على الإلمام بتلك المقدّرات النقدية بحثا عن مبرّر الاختيار وتوطيدا لأواصر التّواصل في الثقافة النقدية الأدبية العربية بين الماضي والحاضر .

وقد يكفينا القول بموضوع الاصطلاح النقدي إلى أن نتفكّر في جملة من المواضيع النقدية التي نراها ضرورية في سياق مقتضيات البحث هذا والتي نذكر منها سمات انتقال الثقافة العربية من الطّور التقليدي القديم إلى ما تتطلبه الحداثة والجدة ، وسيكون من اللازم علينا البحث عن مناطات الاستنارة التي تثبت حقيقة التّواصل الثقافي العربي خاصّة في صورة النّعاطيين الأدبي والنقدي العلميّ معا .

ولاستجماع مناحي توزّع فصول بحث إشكالية المصطلح النقدي فقد سعينا إلى حشد التفرّيعات الموضوعية اللاحقة بتلك الاعتبارات خلال الفصل الأوّل فكانت تطمح لمقاربة إشكالية الحاجة النّقدية الداعية حقيقة لتوظيف

الثقافة النقدية الاصطلاحية ، وقد التبس هذا التوجّه بجملة من الاهتمامات الثقافية الأخرى منها أثار البعثات التعليمية إلى الغرب في التفتين إلى قيمة هذا العلم والمعرفة في حيّز الثقافة الإنسانية الحديثة أو المعاصرة ، وقد كان لزاماً على تجربة التّلمذ على الثقافة الغربية المعاصرة أن يسّح العقل العربيّ المغترب هناك بالدّعائم اللّغوية الترجمية المثيرة لتجربة الاصطلاح النقدي. ولقد فرضت علينا طبيعة تجرّد الوجهة الاصطلاحية ضرورة الالتفات إلى التجارب العربية القديمة الراسخة في المضمار فعرجنا على تجربة الاصطلاح البديعي من حيث هو متمنّع بطبيعة علمية اصطلاحية بارزة لا مجال لإغفالها أو تجاوزها .

وأما الفصل الثاني فكان عبارة عن نقد للوظيفة الاصطلاحية من حيث مدى وظيفيتها في تحرير الطّاقات الإبداعية في الأديب العربيّ ، وهل التركيز العلمي أو الثقافي الذي تستحوذ عليه الإشكالية كفيّل بأن يلهم الناقد الأدبي العربيّ مقوّمات تفكيرية هي بالضرورة أكثر إثماراً من تلك التي تكون ناتجة عن الممارسة النقدية الأدبية العادية ؟ ، ولقد تبين لنا أنّ الاصطلاح النقدي قائم في جوهره على وظيفة تلخيصية تختصر الفكرة النقدية في قيمة اسمية سيكون من العويص إعمالها في تفهّم أو تذوّق الظاهرة الأدبية ، وبناء على هذا فإنّ المصطلح هو غاية علمية قد تتقلب ضارّة بالوظيفة الفنية أو الجمالية إذا لم تحدّد لها الأبعاد الوظيفية الخاصّة بجذواها الفكريّ ، فالاستعمال العشوائي للمصطلح النقدي مفض إلى ضرب من التّسيّب والمغالطة والإخلاء .

وأما الفصل الثالث فأتى ملخصاً لما سبقه من الفصول ، انصبّ التفكير البحثي خلاله على تداول العينات النقدية الواقعة في دائرة الاهتمام الاصطلاحي ، وبالنظر إلى اتساع نطاق الاستعمالات النقدية الاصطلاحية فقد اقتصر نظرنا على اعتماد آراء بعض النقاد العرب المحدثين أو المعاصرين منهم خاصة مصطفى ناصف ، وعز الدين اسماعيل ، ثم داخلنا بعد ذلك بعض الاستعمالات النقدية الاصطلاحية المتصلة ببعض العلوم الأدبية الجديدة من مثل الأدب المقارن ، واللسانيات وعلم الدلالة وقد كنّا نصبو خلال ذلك التحويل إلى تبيان مدى استعداد بعض حقول الدراسات الأدبية لأنّ يتحمّل الوظيفة الاصطلاحية أكثر من غيره من الحقول الأخرى.

وإذا كان لزاماً على الباحث أن يثير المشاكل والمطبات التي هو ملزم بالاعتراف بإشكالاتها خلال تسيير الموضوع فإنّني أعترف صادقاً بأنّ الفترة التي قاربت بحثها مشوبة بالتخليط والإشكال وليس ذلك إلا لكون مرحلة التأسيس للأدبية العربية المعاصرة والحديثة قد بات ينتابه أكثر من تناقض ظاهر وواضح فقد كان هذا المعبر فرصة للتضارب والتطاحن وتصارع الأفكار السياسية التي لم تنهض نهوضها ذلك الوقت من تاريخ الأدبية العربية فقد كان المجتمع العربيّ موزعاً بين القومية والاشتراكية والوطنية والدينية ، وقد كان ذلك التناحر كافياً لأنّ يترك بصماته واضحة على كلّ الآثار الأدبية المنتجة في تلك الحقبة من تاريخ الأدب العربيّ ، وربّما كان ذلك المطبّ الذي عرقل حركة النقد الأدبي العربيّ وبالتحديد فقد كان الصراع السياسي مناسبة قوية لعرقلة التأسيس لحقل الدراسات النقدية الاصطلاحية بمعنى

العبارة . وإن كان للباحث بعض الصعوبات التي تعترضه أثناء إنجاز بحثه فلا بد من الإشارة إلى صعوبة الإحاطة بالموضوع إحاطة شاملة ، ذلك أن المصطلح النقدي يتوزع في ثنايا الأدب بمختلف أنواعه ، مما يجعل القبض على تلافيف الموضوع بكامله ضربا من المستحيلات لباحث مبتدئ ، ناهيك عن حداثة الموضوع أثناء تسجيله في التسعينات ، حيث عزت المراجع ، مما جعل الرجوع إلى المجالات أمرا لا مفر منه ، كما لا يفوتني أن أنوه بجهود المشرف الدكتور عبد القادر فيدوح الذي رافق البحث في بداياته ، غير أن سفره إلى البحرين جعل البحث يتعثر بعض الوقت إلى أن قـيـض الله له الدكتور الشيخ بوقربة الذي بعث فيه الروح من جديد بفضل تشجيعاته ، ونصائحه القيّمة ، فضلا عن مساعداته المادية والفكرية ، من حيث بعض المراجع والنصائح العلمية التي كانت دربا لنا في بحثنا ، فله منا جزيل الشكر والإحترام .

الفصل الأول

1- إشكالية المصطلح في النقد العربي المعاصر:

لعلّ من باب المنهجية العلمية أن يرتدّ النقد الأدبي العربي المعاصر إلى الاستعانة بالاجراء الاصطلاحي المنظم والممنهج لعملية المتابعة النقدية الحداثيّة التي صارت أكثر تعلّقاً بالفكر الفلسفي الحديث ، فالذي لا يخفى على المتمنّ اللبيب أنّ التفكير الأدبي في جهتيه الإبداعي والنقدي ما يزال يشغف كثيرا بالاحتكاك بالمناهج العلمية خاصّة منها المناهج الإنسانية والاجتماعية والنفسية التي صارت المناط الأقوى لإخراج الممارسة الأدبية إبداعا وتفكيراً من مضاميرها الانشائية التقليدية إلى حيّز الممارسة التطبيقية التي تحيل الأفكار الأدبية والفنية والجمالية أكثر واقعية ووظيفية.

وبحسب ما تصوّرناه سبيلا لمداخلة بحث إشكالية المصطلح أو الاصطلاح في ثقافة النقد الأدبيّ العربيّ المعاصر فقد تبينّ لنا بما لم يدع لأدنى تردّد في نفوسنا أنّ الأدب في وجهتيه الإبداعية والنقدية لا بدّ من أن يصدر عن قناعات روحية وفكرية هي التي تمنح صيغه وعباراته التوثيق الحضاريّ أي لا بدّ من مرجعيات روحية تستند إليها العملية الإبداعية على كلّ مستويات الإجراء الإبداعي ، ولما كان بالضرورة أن يلتبس قيام الحداثة الأدبية العربية على تنازع القيم وتفكّك القناعات فقد بات أكيدا أن تنجرّ بالضرورة عدة إشكالات تقوم في جميعها على تأثر التذبذب الفكري والروحي اللذين اعتمدا أساسين لقيام حداثة الأدب العربيّ ، ويكون من الموضوعي والمنهاجي ضرورة الاعتراف بتفاوت التجارب العربية القطرية تجاه هذه المسألة ، أي مسألة حدوث الاهتزازات والتأزّمات والإشكالات في مجال الممارسة النقدية ،

فالنقد الذي هو المحفز الذي يدفع بالهاجس الإبداعي إلى التكوّن والصدور والموئل الذي تنتهي إليه التّصوّرات والانطباعات لا يكاد يتحاشى نتائج التّأثر بتلك المآزق التّكوينية .

ولقد بتنا نعتقد ضمناً أنّ لكلّ مشروع إبداع أدبي مضمونا نقدياً فلسفياً وتطبيقياً يظلّ يسكن المقولة الأدبية باستمرار ونعتقد تخميناً بأنّ هذا الحسّ الكامن الخفيّ الظاهر هو البذرة أو النّواة التي يتمّ في ضوئها تفعيل الطاقات الإبداعية سواء أكان ذلك في حيّز ابتداع الخطاب الأدبي أم في حيّز ابتداع الرأي والنّظر النقدي .

1-1 سمات الإشكال في النقد الأدبيّ العربيّ المعاصر:

قد يتسرّع اقارئ لهذا البحث فيرى في قولنا ببحث موضوع الإشكال تعبيراً عن أزمة خانقة تسدّ كلّ مشاريع التّحوّل الثقافيّ ، وتميت كلّ طموحات الإبداع الثقافيّ ، غير أنّ الأمر خلاف ذلك كلّ لأننا لو تمعّنا المسألة في عمقها لألفينا الموضوع ، موضوع الإشكال في النقد الأدبيّ العربيّ الحديث منطوياً على جملة من التّحريضات الثقافية والأدبية هي التي تصوّر مفهوم الإشكال من دلالة التّأزم إلى دلالة الفاعلية والتفاعل وقد تمحور الاهتمام حول دلالة الخصوصية الأدبية التي ظلّت تشكّل الموانع الطّبيعية التي هي عاملة على استتفاء الدّخيل ، لأنّ جوهر الإبداع الأدبيّ في تعاطيه الإنشائي أو في ممارسته النقدية لا يصدر إلّا عن إحساس بانغلاق معرفي تأتي الكتابة النقدية سبيلاً إلى تذليله وتفتيق المفاهيم والدّلالات المرتبطة بمقتضياته الفكرية .

والذي يتفكّر في تاريخ النقد الأدبي العربي لا يكاد يخفى عليه ما انتاب الحركة الأدبية العربية في النصف الثاني من القرن العشرين وما بعدها إلى اليوم من تجاذبات فكرية وفلسفية ودلالية كانت في مجملها تدور على محاور موضوعية تكاد تتلخّص في إعادة فهم الوظيفة الأدبية ومدى واقعية أو نجاعة التفكير الأدبي ، فقد حتمّ اختصاص العصر بالعلوم التطبيقية على الأدباء والنقاد أن يمتاز بالرؤية الواقعية التي تكفل للتفكير الأدبي الخروج من نمطيته التقليدية إلى حيّز التأثير والفاعلية الإجتماعية .

ولقد كان الصّراع يضرب أطناب جداله بين الرومانسية والواقعية أو بالأحرى بين التيارات الروحية المثالية وبين التيارات الواقعية الإجتماعية التي ارتأت في الوظيفة الأدبية المخلّص الحاسم لتناقضات الواقع العربي ، وقد صادف أن تزاومت جملة من المبادئ والأفكار مع مشروع التدخل الفدائي في الوظيفة الأدبية والفنية في حيّز الإبداع الأدبي في الوطن العربي ، حيث برز إلى الوجود جماعة من الأدباء والنقاد اضطلعوا بتنوير تلك المؤدّيات الفلسفية والفكرية كانوا جميعهم يسعون إلى تقريب الممارسة الأدبية والفنية من وعي الفرد العربي وهم لا يخفون خلال كلّ تلك الإجراءات أنّهم يسعون إلى شيء يشبه الثورة أو الانقلاب على المؤسّسة الثقافية العربية التقليدية المحافظة .

ولقد كان لزاماً على هذه الحركة أن تشقى جاهدة إلى إعادة تسمية المعطيات ، وتدقيق الاصطلاحات كسبا لروح النقلة التي دأبوا مجتهدون في إحقاق مشروعها الجديد المتجدّد المستجدّ .

وقد يعدّ من نافلة القول التركيز على مدى الإسهام العلمي والوظيفي اللذين أسداهما التفكير الفقهي أو الشرعي لوجهة النقد الأدبي العربي ، حيث

باتا يتواشجان في كثير من الفعاليات التنظيرية ، وقد كان لزاما على النقد الأدبي العربي أن يقتبس الكثير من مناهجه وقيمه الوظيفية من مشروع الرؤية الفقهية الإسلامية خاصة في موضوع الوظيفة الاصطلاحية ، وقد لا نبالغ أو نغالي إذا ما قلنا : إنَّ النزوع الاصطلاحي في مضمار التفكير النقدي العربي هو سليل التفكير الفقهي قد حذا حذوه النعل بالنعل متأثرا قواعده التفكيرية وأساليبه المنطقية ، حيث ليس بالخفي على المتمعن المتفكر مدى اعتماد التفكير الفقهي الإسلامي على القيمة الاصطلاحية للأحكام الشرعية بل إنَّ النزوع النقدي في الأدب العربي ليدفعنا إلى تمثل الغايات ذاتها في حيز النقد الفقهي الذي هو مشحون إلى درجة فائقة بالدلالات الاصطلاحية باعتبارها المناطق التي تحدّد القضايا والأحكام.

1-2- تاريخ النزوع النقدي الاصطلاحي :

لعلّ من الموضوعي والمنهجي التّظر إلى التفكير النقدي الاصطلاحي على أنّه متوافر على الأسباب النقدية العربية الأولى باعتبارها نشاطا لغويا في صميم التقدير القرائي للنتاج الفنّي وللبلاغة الأدبية على أخصّ تحديد ، ولو أننا سعينا إلى تقدير حقيقة التّوجّهات النقدية العربية الأولى في صميم تبلورها الأوّلي لألفيناها مرتبطة بجوهر الوظيفة اللغوية خاصّة منها الاستعمال الصّرفي حيث تتحدّد هذه الغاية باعتبارها نزوعا بنائيا علميا أكثر من أن يكون أدبيا.

3-1- المصطلح النقدي :

يبدو لنا لفظ الاصطلاح قديم التّجلي ، عريق الهاجس ، غزير التّوارد بين أهل كلّ زمان ، وإذا ما أردنا تجرّ تاريخ حضوره المنهجي ارتدّدنا بموضوعه إلى بداية النّهضة العلمية المنهجية التي أثرها الدّرس الفقهي في اعتبارات الدّراسة الأدبية وخاصة منها النّقديّة ، حيث كان لزاما على التّفكير الدّيني الشّرعيّ أن يتبنّاه منهج الإجماع الفكريّ من أجل تحديد القيمة الوظيفية المادية والمعنوية لمسألة اجتماعية أو دينية أو نفسية ما، فكان أهل ذلك الاختصاص يلجأون إلى تبني الأحكام الشّرعية المضبوطة التي تأخذ بمرور الأيام طابع الاسمية الاصطلاحية .

وواضح كذلك من جهة اعتبارات أخرى أنّ المصطلح على العموم وارد من جهة التّأثيرات الحضارية المعرفية التي أفرزتها التّرجمة من الثقافة اليونانية إلى الثقافة العربية الإسلامية فقد صادفنا في هذا المضمار كثيرا من العلماء العرب المسلمين يستفيدون من المناهج الفلسفية للمنطق اليوناني في تفهم ظاهرة الثقافية العربية الإسلامية من مثل الطباعي ، والصّناعي ، والاصطلاحي¹.

ومن جهة أخرى فإنّ علم الاصطلاح فكر ناشئة جذوره التّكوينية الأولى انطلاقا من علم الصّرف العربيّ الذي هو علم يختصّ بدراسة إيقاع البنية اللفظية الذي ينتظم الاستعمالات اللسانية المبرّرة للغة العربية ، فالمفردات

¹ : ينظر ، أبو حيان التّوحيدي ، الامتاع والمؤانسة ، ج 1 ، علي الزين أحمد أمين ، دار مكتبة الحياة بيروت لبنان ، ص 9

تتفاوت في مستويات تشقيق فروعها بحسب الإمكانيات الصوتية والمخرجية المؤلف لجذر المادة اللغوية .

وقد يكون من الضروري والملح والمنهجي التعرّيج على استيفاء حقيقة المعطيات الثقافية التي استنبت فيها تعاطي الاصطلاح النقدي ، فنقول :إنّ من البديهي لدينا أن نرى أنّ التجربة الإبداعية الإنشائية سابقة للممارسة النقدية من الوجهة المنطقية الإحصائية فقد اهتدت النفس البشرية إلى تعاطي الإخبار والتصوير والانطباع قبل أن تحوجها صورة الوعي إلى الاهتمام إلى تدبّر المقاصد والوسائل والغايات المكتنفة لتلك الممارسة الأدبية الأولية ، وهذا يتوافق بالطبع والغريزة مع كون الحسّ أسبق في الوجود من العقل فالمحسوسات أولى من المعقولات ، بل لعلّ الفائدة المجتناة من كلّ هذا الجدل أنّ العقل يعتاش على تجارب الحسّ عبر نبواته وإصاباته ، فالعقل يقتفي أثر التّجريب الحسّي يسايره ويواكبه ويتخيّر من التّجارب الحياتية ما نجع منها وما صار قابلا للمعاونة والتّنميط والتّكرار .

والسياق التفكيري السابق يجعلنا نقول :إنّ التجربة الحسية في الممارسة الأدبية هي الأسبق والأولى في الممارسة والوعي ، ولهذا نعتبر النقد الاصطلاحي شبيها بالحياة الثانية للممارسة الأدبية ، أي عبر ذلك المستوى التفكيري الذي يستطيع فيه الأديب وعي الأدوات وإحصاء المؤدّيات، حتّى يكون ذلك الإلمام وسيلة ناجعة لإحصاء مقدّرات الظاهرة الأدبية التي نعتبر مزاوله النقد الاصطلاحي أحد أبرز وجوهها التّنظيرية والتّطبيقية معا.

2- خصائص إبتداع المصطلح النقدي البديعي :

نعتقد أن ليس لنا من مبرر يدعو إلى تبني هذا المدخل لدراسة إشكالية المصطلح النقدي سوى كون الأدبية العربية الإسلامية مرورا بكلّ أعصرها المتوالية تستند في صميم انفعالاتها النفسية والفكرية للمرجعية البديعية ، فالإبداع العربيّ وفق شقيه الشعري والنثري سيظلّان ينزعان المنزع البديعي باعتبارها محور الانفعال الفنيّ الغالب على السيرة الأدبية العربية ، وفوق هذا كله فقد ثبت في تاريخ النقد الأدبي العربيّ أنّ النزوع النقديّ التقعيديّ البحث قد شرع يتبلور وفق القيم النقدية الاصطلاحية انطلاقاً من ملاسبات الدّرس البديعيّ مثلما تجلّى هذا النزوع في كتابت ابن المعتزّ وابن رشيق القيرواني وغيرهما كثير ، والذي يرتدّ منّا بتفكيره إلى مكتنفات النزوع النقديّ الاصطلاحية يستطيع أن يتبيّن مدى ثراء التفاعلات الاصطلاحية في حيّز التفكير النقديّ البديعيّ من حيث ظلّ مسارها الدّنظيريّ خاضعا لجملة من الدّحوّلات العلمية والتّطبيقية حتى وصلت به مختلف المساهمات والتّجارب إلى أن يبلغ مبلغا علميا تبلور في تحوّل التفكير النقديّ الحديث من البديع إلى الفلسفات الفنية والجمالية الحديثة مثلما عاناها رواد النهضة النقدية الأدبية العربية الحديثة من أمثال العقاد وشوقي ضيف وعزّ الدين إسماعيل ومصطفى صادق الرافعي.²

كان الإبداع في مدارجه البدائية ينساب حرّاً طليقا لا تشوبه شائبة نقدية، يتهدّى إلى مظانّ التّخييل والتّصوير ، وينحت من إيقاعات الأساليب اللّغوية الفنّية ما شاءت له الأحاسيس والانفعالات أن يصيب ، وكان إبانها إنشاء

² : ينظر ، تاريخ آداب العرب ، مصطفى صادق الرافعي ج 1 ط4 دار الكتاب العربيّ بيروت لبنان ، 1974 ص31

الخطابات لا يلتفت إلى وراء ، ولا يتصنّع في مرايا النّقد حتّى قويت علاماته ، وأكسبته سيرورته رصيذا تجريبيا ، هي التي كانت سببا في ظهور النّزوع النّقديّ ، ولا نستبعد أن يكون ظهور الحسّ النّقديّ قد تبدّى نتاجا لبداية تشكّل قوّة السدّلة السّياسية ، فهو أي النّقد لم يولد منبثقا سابقا للإبداع بل جاء تاليا محصيا واصفا منبّها عابنا بتخطيء المبدعين ، وبذلك فقد كان من المنطق أن يعلن ظهور النّقد عن ولادة مولود عاق يقاسم الإبداع عزّته ، ويحايزه المحافل

وإذا جاز لنا الاعتبار بالموضوع التّقليدي في تراث النّقد العربيّ : الّفظ والمعنى فإنّنا لا نصادف محلاً مثل بحث موضوع الاصطلاح لتوضيح العلاقة بين اللفظ والدّلالة من حيث تواقعهما وتجانسهما ، لأنّ للغة آليات الاعتراف من الواقع والفكر والأحاسيس لا تغادرها ولا تتبدّلها ، وكلّما كانت العبارة أوجز وأقصر كان ذلك أكثر مناسبا لتوزيع تلك العلاقة وتوقيعها تبعا لما يصادفه الحسّ من تلاؤم مع العقل خلال التّعامل مع العبارات المتقاصرة ، فالموجز أعلق بالحسّ وأوعى في العقل ، وأنسب للملاءمة والاحتياث (...)

لأنّ الكلام إذا جاء قليلا وقع وقوعا لا يجوز تغييره (...)³ ، وإنّ أفضل ما يتوافي فيه العقل مع الحسّ بناء العبارة المتقاصرة ، لذلك قيل للقصيدة الحقّة كلمة ، وتفاعل النّاس بالأسماء وتفاءلوا ، ونشطت قرانحهم في ابتداع الباعث على التّفاؤل والاسترواح خلال اشتقاق ألفاظها.

إنّ ثمة مماثلات بين الإبداع من حيث مهمّة كلّ من الانطباع الإنشائيّ وبين التّركيز النّقدي لأنّ في طبيعة تناظريهما مشكلة عجيبة تتقدّر أبعادها

³ : الجاحظ ، البيان والتبيين ، مج:1 ، ج:1 ، ص: 194

ضمن استراتيجيّة توحى بأن ننظر إليها في سياق مقارنة أخرى تبينها وتفسرها
ألا وهي ثنائيّة السّاحر والمتفرّج فالشّاعر أو المنشئ المبدع على الإلهام
والابتداء المزاوّل لتسمية الواقع في تموضع فعل السّاحر الوحيد بأن يبذل
قصارى جهوده في سبيل إخفاء قوانين اللعبة الفنيّة عن طريق محو الصّلة
البينة بين الاسم والمسمّى بين اللّغة والواقع ، بين صورة الفعل ونتائجه عبر
مهاارة التّفوّق في انتسار الظاهرة ، فبقدر ما ينجح المسمّى الذي يلمّ أعراض
الظاهرة ويستجمعها ضمن مؤدى لغوي مركّز بقدر ما تتحدّد مهارته في
تهريب صنّعه عن الأعين لأنّه إذ يطال تلك المزايا يضمن لإبداعه التّعجيب
والطرافة والبُهر ، وأمّا مهمّة النّاقّد فمرتبطة بمدى حفظ المسارب التي
بتوصيفها يحلّ لغز الظاهرة السّحريّة ، فالنّاقّد يسعى إلى امتلاك المبرّرات
الموضوعيّة الفنيّة التي بها يقوى على ادّعاء حيازته مفاتيح تفسير الظاهرة
الفنيّة ، ولقد حفل تاريخ النّقد العربيّ قديمه ، وحديثه بالنّقاد الذي نعتبرهم
مبدعين فاشلين في إنتاج الخطابات فاقترضوا على غاية التّدقّق والتّفهم ، حتّى
برعوا فيها ولنا في الجاحظ ، وعبد القاهر الجرجاني والأمدي صفوة الصّفوة
، ولنا في فئة أخرى من الفقهاء ابن قتيبة ، والباقلاني ، خير مثال على اهتمام
نقديّ آخر انصبّت جهوده على الإخلاص لدرس الإعجاز.

وبقدر ما تملّ الذات الإنسانيّة اسميتها لأنّها عالقة بأسر ملفوظها وحدود
مدلولها فإنّها بالضرّورة هي الأوعي لنفسها حسب مقولة القدماء إنّني لا أحتاج
لإنسان لكي يعرفني على نفسي ، فالذات أعرف بذاتها ، وإنّما النّاس تهرس
للإسمية والإصطلاح ترميزاً وتقديراً ورقماً للدّلالة حتّى يسهل نقلها والاعتبار
بقاعدة دلالتها.

2-2- ملايسات المنشأ الاصطلاحي :

نحاول بداية تبصر العلاقة الرابطة بين الأدب باعتباره فناً ، وبين النقد الاصطلاحي باعتباره علماً يناقض المبدأ التجريبي الذي يتبناه منهج الإبداع الفني ، إذ يتضح لنا من أبسط تأمل في ما يشبه البديهة أن المحايضة والتنافر بين نهجين يتوخى كل واحد منهما ، في ظاهره ، مخالفة الآخر ، فلتشاط الأدبي حسب تصوّرنا ناهج سبيلين إحداهما : التفكير الحسي فالمتلقي إزاء هذا الضرب من المعرفة (... لا يتميز الشيء عنده إلا بالحس...) ⁴ ، وأخراهما : التفكير العقلي المنطقي ، فالعقل إذا غلب على إبداع الفنون قيدها وسطحها تبعاً لما هو مفتقر إليه من طبيعة سياسة المسائل الروحية التي سبيلها الحس ، وميزانها المطاوعة والمجازبة والتداعي ، لا حظ للتأويل والحدس في التفكير المعقول ، بل حساب وإحصاء ومقارنة .

ويمكننا اعتبار النزوع التعريفي للمفاهيم النقدية من أهم المحصلات الإجرائية التي اهتم بها البحث النقدي الاصطلاحي حيث يثبت بما لا يدع الشك أن الناقد العربي الحديث قد بات يعول على الإجراء التعريفي باعتباره مدخلاً مسوّغاً لبث التفرّعات البحثية في موضوع المصطلح النقدي فلقد وقف أكثر من ناقد على هذه الحقيقة المنهاجية مثلما تجسّد هذا الالتفات لدى بوقربة الشيخ حين أفرد في بحثه المفاهيم الشعريّة في النقد الأدبي الحديث تفرّيعاً بحثياً أسماه مفهوم الخطاب منح خلاله حيزاً ذا قيمة ملفتة للنظر للإجراء الاصطلاحي حيث قابل فيه بين جانبي الاصطلاح الغربي من جهة

⁴ القزويني ، الإيضاح ، في علوم البلاغة ، مج:2 تح: د. محمد عبد المنعم خفاجة ، دار الجيل بيروت ، ط: 1993/3، ص: 19

والاصطلاح العربي من أخرى ، حيث (... أدى اختلاف النقاد في ترجمة مصطلح الخطاب إلى اضطراب حدوده ، وعدم اتفاق العاملين في ميدان النقد الأدبي على توحيده ، وتحديد أدبي حدّ من الاستقرار في المنظومة المصطلحية)⁵ .

لقد أوتي التفكير النقديّ الأدبيّ العربيّ الحديث كلّ الشّروط الموضوعية التي حتمت عليه ضرورة المرور بالثقافة النقدية الاصطلاحية ، وأقلّ ما يقال في الموضوع أنّ الامتياح من معين هذه المعرفة الجديدة قد صار شرطاً تحديثياً كفيلاً بأن يسم كلّ جهد معرفي واقع في دائرة اهتمامه بالجدّة والموضوعية والتّطبيقية وتلك جميعها أشراط علمية صارت للغة والمعاصرة تتبنيانها من أجل الانخراط في المعرفة الأدبية الحديثة ، والذي لا سبيل إلى إنكاره أنّ هذا التّوجّه في النقد الأدبيّ الجزائريّ الحديث قد بات يعوّل ملياً على إسهام الدّرس الجامعي الأكاديمي ، حيث تدعّم هذا الحضور ببيروز أسماء علمية وأكاديمية من أمثال عبد الملك مرتاض ، ومحمّد مصايف ، وأما في تونس فقد عبى المسدي باحتمال هذه الريادة ، مثلما هو الشّأن في المغرب حيث ظهر اسم محمّد برادة ومحمّد بنيس رائدين في هذا المقام .

ويبدو أنّ عبد الملك مرتاض قد أتى متبوّناً لريادة الجهود المغاربية المذكورة من حيث تملك الشّجاعة في الانقضاض على المقدّرات الإبداعية في حيّز توظيف المصطلح النقديّ حتّى ما يدانيه حسب اعتقادنا واحد من الأعلام المذكورين ، فهو دائم التّجديد والتّجريب يداخل المواضيع النقدية الاصطلاحية

⁵ : د. بوقربة الشّيخ ، المفاهيم الأدبية في النقد العربيّ الحديث ، مجلة علامات يونيو : 2001 ، ص: 331/330

فتستوي له الأبعاد وتلين له مقادير الأفكار وقد عددنا له جهودا معتبرة في كتبه التي قاربت القديم والجديد على السواء ، ففي كتاب الأدب الجزائري القديم ، دراسة في الجذور قد كرّس قسما غير هيّن من فصول الكتاب لاستعراض المسمّيات الاصطلاحية النّطبيقيّة من مثل شعريّة النثر ، والتّشاكل الإفرادي ، والتّشاكل التركيبي⁶ ، غير أنّ الذي أثرى التّجربة النّقديّة الأدبيّة العربيّة هو تمكّن بعض العلماء من إتقان اللّغات الإنسانيّة الأخرى حتّى صار كلّ جديد واقعا في دائرة معارفهم .. ، وقد صار لهؤلاء الأعلام الأوائل طلبة وتلاميذ وأتباع تفاعلوا معهم بالدّرس والمحاضرة حتّى أكسبوههم قبسا من الفطنة التي سكنتهم حتّى أثمرت المجايلة بالنّماء المعرفي المتواصل.

وحتّى وإن بات النّقد الأدبيّ الفنّي يعتقد بتواشج عملي كلّ من العقل والحسّ الذي نعني به جانب المشاعر والعواطف ، فالصّحيح هو تنوّر أحدهما بتجارب الآخر، إذا فمسألة الإصطلاح على الظواهر الفنيّة يبدو غير مستتبّة نجاعته منذ المنطلق ، إذ كيف للعقل أن يقوى على التّلاؤم مع جانبي الحسّ والعواطف العاملة على إنتاج الفنّ وهما الجانبان المتحايزان المتنافران حسب علمنا بالقدر الذي يستحيل معه اجتماعهما في خطرة واحدة ؟

وإذا كان للمصطلح العلميّ أن يجد له استثمارا وظيفيّاً أكثر نجاعة في فنون العلوم الأخرى ، فإنّه في التّجربة الأدبيّة يبقى محفّوفا بكثير من الإنزلاقات المعرفيّة التي تشهد بمدى توافر لغة الأدب على الحيويّة الرّوحيّة المتجدّدة أبدا فلا سبيل إلى توافر الكلمات المنكفيّة المكفيّة بمدلولاتها

⁶ : د. عبد الملك مرتاض ، الأدب الجزائريّ القديم ، دراسة في الجذور ، دار هومه 2005 ، ص: 122/120.

المرجعية⁷ ، كما أنّ (.. ظهور المصطلح الفني لكلمة البديع ، لم يقض على معناها اللغويّ ، وظلت تستعمل بهذا المعنى فترة من الزّمن ، وتطلق على كلّ صورة شعريّة جديدة بدون تحديد معيّن..)⁸ ، فقد ظلّ الإصطلاح منذ بزوغه يراوح بين التّحديد الإصطلاحي ، وبين الغايات التّوصيفية الجاهدة للإلمام بالبديع .

يفضي بنا تداول إشكالات الاصطلاح على فنون البديع إلى القول : إنّ التّواضع في شأنه ليس كالتّواضع في شأن علوم الأدب ، واللّغة الأخرى لأنّه مضمار قائم على نشاط تبديليّ هائل ، وإنّ نشاطه ذاك يسمه بكثير من حرج الاستقرار على صورة إيقاعية واحدة ، فمنهج الإبداع مفتوح على التّجدّد والتّنوّع ، بينما حاجة الإصطلاح تهفو إلى غاية إخضاع ذلك النّشاط للإحصاء والتّقييد . فلقد ترسّخ في الاعتبار النّقديّة أنّ كلّ حوصلة لمجهود إبداعيّ بوضعه مركّزا في صيغة اصطلاحية اسمية محدودة يجمّل إيعازاً ضمّنيا بكسر تجدّد ذلك النّشاط الإبداعيّ لدى الأجيال الشّعريّة المتلاحقة ، ووفقا لذلك فقد ألفينا القدماء يقرّون بإشكال ذلك المسعى فهم يعترفون مسبقا باستحالة حصر ظواهر البديع ، لأنها تأتي موقّعة بإيقاع النّدرّة والفجائيّة مغافلة لوعي العقل متجاوزة لأطره المعرفية ، وإنّ من بين ما يوثق هذا النّظر الذي ظلّناه خلال هذا التّداول وقوع الاصطلاحيين القدماء في مزايدات اسمية وسمت المصطلح البديعيّ بتطلّب بعض المتمّمات اللفظيّة التّوضيحية أبانت عن مدى إقرارهم ضمّنيا بطبيعة تفلّت الجماليات البديعية من أسر الاصطلاح ، قالوا: بالتّشبيه

⁷ : ينظر، أندريه مارتيني ، مبادئ في اللسانيات العامّة ، تر: د.سعدى زبير ، دار الآفاق ، ص: 100

⁸ : د.رجاء عيد ، المصطلح في التراث النّقديّ ، منشأة المعارف بالأسكندرية ، د.ط./د.ت، ص: 21

الحسن ، والتشبيه الخاطئ ، والتشبيه المصيب ، والقريب والبعيد . ولا يمكن ردّ أمر اختيارهم في ضبط المسميات الإصطلاحية حين يتعلق الأمر بتسمية هجسة المحسن البديعي إلا إلى كون تلك النتاجات الجمالية قائمة طبيعتها على معاداة التّمنيط ، حتّى يمكننا القول: إنّ كلّ تبين للإجراءات الوظيفية هو في حقيقة أمره فيصل بين الشعر الشّاعر والنّظم الفاتر، واستنادا لهذا المؤدّى النظريّ فإنّ كلّ بديع في الشعر رهين المصادقية الإبداعية بمدى ما تتحفز له أساليبه من إمساس مستجدّات الهجّسات المؤلدة لإيقاعات المحسّنات البديعية .

وتبعا لهذه المعطيات التّصوّرية فإنّ النّقد انطلقا من مفهومه التّكوينيّ عليه أن يتخلّى عن مزيّة استباق المشاريع الفنّية ، ومحاولة هندسة صورتها التّركيبية فالمجرون ألسنتهم في مضامير البديع مدركون لانفتاح مجال تفعيل دلالاته على سعة التّوقيع لأنّها فنون لا نهاية لها⁹ ، وإنّ حرصهم على إحصاء الظواهر الفنّية متأتّ من شغفهم بإحصاء الغريب والتّطلّع إلى الاهتمام بما يوقعه المشهورون بفنون الكلام ، وقد ألفينا القدماء وفاقا لمبدأ تحصيل الوعي الجمالي المتفهم لضرورة تحرير الحسّ من قيود هيمنة العقل على نزوعات التّجريب الاصطلاحيّ ، مبقيا لاعتمالات نشاطات الحسّ الفنّي في مجالات تفاعله مع مشاريعه التّصوّرية التّخييلية ، لقد أدرك القدماء ضرورة إخضاع توليد المصطلحات الفنّية لفسحة من المطاوعة والتّجريب ، من حيث أقرّوا مبدئيّا حقيقة تماهي إشكالات التّسمية فسلموا بحقيقة إمكان تبديها في مسميات

⁹ ينظر ، المبرّد ، الكامل في اللغة والأدب ، ج:2 ، مكتبة المعارف بيروت لبنان ، د.ط/د.ت ، ص:

تتناوب على الحيز الواحد متكاثرة متواشجة مقرّة ضمنياً عسرة القبض على جوهر حقيقة الفاعلة الفنية ، لأثّها كثيرة الدّشاط ، غزيرة الحوّل .

ولم يهتم العرب القدامى بتسمية نتائجهم الانفعالية من كان اهتمامهم منصباً على اعتبارات تقيّم مقول الخطاب لا مستتبعاته النّقدية ، ولم يكتب لعلم المصطلحات البديعية أن تقوم له قائمة إلا بعد حصول رصيد من التّجريب الإبداعي أفرز قيما تراكمية معتبرة جعلت أدباء المتلقّين يتنبّهون إلى تلك الاعتبارات النّظرية الحاصلة ، فراعوا ضرورة التّوافق بين الحال الذي هو الظّاهرة الفنّية وبين المحلّ الذي هو المصطلح ، ثمّ سلكوا لبلوغ غايات التّسمية والاصطلاح موازين صرفية هي في أساسها محيلة على مقاربة الدّلالة الاصطلاحية ، والسّبيل إلى توزيع الاعتبار العلمية في المصطلح البديعيّ وارد من جهة بثّ الانسجام والتّناغم بين الجوهر والعرض¹⁰ ، إذ لا بدّ من مقاربة التّدالّ بين الصّيغة الاصطلاحية في صورة وحدتها الصّرفية وبين مدلولها العلميّ المستقطع من سياق التّجريب الإبداعيّ ، فلا مردّ إذن من أن يتوخّى القاريّ استقراء الفائدة المعرفية الطافرة من حدود المصطلح وحده بعيداً عن معطياته الخطابية .

وليس يشكل على العربيّ أن يجد كلّ أسباب التّناغم والانسجام بين تجاربه الانفعالية وبين خصائص توقيع طرائق الأعراب في بثّ جماليات بديعها خلال الإجراءات الخطابية الرّامية إلى تحقيق الطرافة في أساليبها اللّغوية والنّدرية ، فالبلاغة العربية نزوع حسّيّ مركوز في طبيعة العربيّ

¹⁰ : ينظر ، أبو بكر محمّد بن الطيّب الباقلاني ، كتاب التّمهيد ، تح: الأب رتشارد يوسف مكارثيا ليسوعي ، المكتبة الشّرقية بيروت ، د.ط/ 1957 ، ص: 12/11 .

يتكامل فيه الحسّ مع خصوصية طبيعتي الزّمان والمكان ، ويبلغ شأن خطورتهما أن يرتدّ أحدهما منبها على الآخر إلّا عليه حتّى كأنّ (... لنفس العربيّ طيفا يحرك اللّغة حتّى بأنفاس الخطرات ...)¹¹ ، واللّغة وفق هذا المؤدّي ملك السّامع المتلقّي الذي أوتي فضل التّفهم ، فلا يرسل خطاب ، ولا ترفع عقيرة بإنشاد إلّا توهمت ذلك الحضور التّواصلّي الآلي لصورة المتلقّي ذي القابلية للتّلقّي الفعّال .

إنّ الذي ينتظم تاريخ الاصطلاح على فنّ البديع لدى القدماء هو إشكال الجمع بين الغايتين ، غاية التّجريب الفنّي ، وغاية التّقييد النّقديّ ، فبقدر ما أصاب الوعي الجماليّ هذه المزية النّكّته ، بقدر ما أحال المصطلح البديعي على ضروب من التّبديلات والاشتقاقات المفسّرة لحقيقة تعارق المعقولات مع الرّوحانيات ، فهما وإن كان يتبادلان التّنوّر وبعض الانزياحات المعرفية حتّى إذا خرجا من السّرّ إلى العلن اكتسب كلّ منزع منهما غايته المنهجية .

2-3- التاريخ لميلاد المصطلح في النقد الأدبي العربيّ :

يعتبر النّزوع الترجمي في ثقافة النقد الأدبي العربيّ من المسوّغات الحاسمة لاعتماد الناقد العربيّ للنقد المصطلحي وقد كانت ثمة علوم فرضت نفسها بالنّظر إلى هي قائمة عليه من إلزامية التّسلّح بقيم العصرنة والتّحديث ولعلّ دروس دي سوسير تعتبر أهمّ مولج اتّخذ سبيلا لمداخلة كثير من المفاهيم النّقديّة ، والدّرس السوسيري وإن متّصلا الاتّصال الوثيق بالدّرس اللّغوي اللّساني الصوتي فإنّه ظلّ يبسط كثيرا من أفكاره التّطبيقية على المساهمات النّقديّة التّطبيقية هي الأخرى وإذا كانت كلاسيكية الحدّثة النّقديّة قد ألحقت

¹¹ بمصطفى صادق الرّافعيّ ، تاريخ آداب العرب ، ج:1، ص:229

مفهوم الصورة بالوظيفة الشعرية فقد اكتشف الوعي النقدي العربي امتداد آثار هذا الاصطلاح ليلحق جملة من التوظيفات من أهمها الصورة السمعية خاصة في مقولة (إن العلامة لا تربط بين الشيء والاسم بل بين المفهوم والصورة السمعية)¹² ، وأخرى بكلّ تفريع في الاصطلاح الواحد من هذا القبيل أن يحيل الناقد الأدبي على تدقيق المفاهيم وتحديد الحقول وتوضيح الإجراءات التطبيقية خاصة وأنّ التوافق بين الدرس اللغوي والإجراء النقدي الأدبي قد تدعّم وتمتّن راسخا من حيث اعتماد الوظيفة النقدية على بحث الظاهرة اللغوية باعتبارها المجال الإبداعي الأكثر نشاطا وحيوية في تفعيل الخطاب الأدبي قديما وحديثا، ولعلّ اهتمام الناقد الأدبي العربي بمقتضيات المعرفة الاجتماعية والنفسية قد صار يدفعه حثيثا إلى تعمق التفكيرين الواقعيين في دائرة هذين الاهتمامين وبالتحديد علم الاجتماع وعلم النفس خاصة وأنّ الكتابات الأدبية العربية المداخل للحدث قد صارت تسعى جاهدة لتوصيف الواقع العربي نفسانيا واجتماعيا¹³

لعلّ من المضحك في جث المصطلح النقديّ أن لا نتجاوز مقولات التأسيس لميلاد ظاهرة علم الاصطلاح دون أن نعرّج على بواورها التأسيسية في تاريخ الأدب العربي ، وهذا ما يسلمنا طواعية إلى تفتيش الكتابات النقدية العربية الأولى ، ويكون من الأخرى الاصطلاح بقراءة طبيعة المؤلفين الأوائل في مداخله مبادئ هذا العلم الأدبي ، وإذا كان لتاريخ الأدب العربي من نزوعات تأسيسية فإننا رأينا في كتاب طبقات الشعراء ما قد نمّ عن تلك

¹² Ferdinand; de saussure . cours de linguistique generals paris payot 1978 p: 98:

¹³ : ينظر: Emile. benveniste . semiologie de la langue : problemes de linguistique generale / paris; gallimard 1965; 44

الإرهاصات المبكرة التي كانت تتحسب انبثاقها جس الاهتمام بهذا المؤدى العلمي الذي سيفتح بدون شك في الدراسات الأدبية حيزا بالغ الأهمية يفرع الرؤية الأدبية ويهبها كثيرا من مزايا التّنوّع والتعمّق .

ولقد صادفنا كثيرا من التّلميحَات النّقديّة في مقدّمة كتاب طبقات الشّعراء نحا فيها ابن سلام منحي توصيفيا لامس فيه كثيرا من المفاهيم النّقديّة التي ظهرت على يده ثمّ ما فتئت أن نالت من أسباب التّطوّر والنّماء ما كتب لها الله أن تتطوّر ، ففي مضمار القول بعلم الأدب ألفينا ابن سلام يقارب هذا المفهوم (... كان الشّعراء علم قوم لم يكن لهم علم أصحّ منه ...)¹⁴

ولعلّ دلالة لفظة العلم هاهنا مقصود بها العلم الحدسي الحسي والشّعوري ، بدليل قولهم ليت علمي ، وهم يعنون بذلك المعرفة الظنيّة المرتكزة على الفراسة والقيافة والظنّ والتّوجّس والمخالجة .

ولأنّنا نعلم أنّ في فنّ الأدب من المزايا المعرفيّة ما هو منها قابل للمعاينة والإحصاء والتّطبيق ، ومنها ما هو مفرط في الروح والخواج والمظانّ الروحية الشّديدة الحوّل والتّخفيّ ، لذلك يعسر القبض على الظاهرة الأدبية الفنيّة مشدّصة كما ينبغي لها أن تتشخّص وتبرز للوجود ، ومنها ما هو واقع تحت طائلة المعرفة العقلية اليقينيّة فيكون اتّسامه بذلك الاختصاص عاملا على قابلية الاصطلاح عليه والاتّفاق ، وإنّ لهذه المرجعية الازدواجية متكأ مزدوجا يستند إلى تدخّل كلّ من العقل والحسّ في وسم الدّلالة الأدبية ، فالحيز

¹⁴ :ابن سلام طبقات الشّعراء ، اللّجنة الجامعيّة لنشر التّراث العربيّ ، دار النّهضة العربيّة للطباعة والنّشر ، ص:10

بينهما مشترك متداخل وفي مضماره يستظلّ العقل بالحسّ مثلما يستظلّ الحسّ بالعقل في تواشج مفعم بالتداخل والتناغم والتكامل في الوظيفة المعرفية .

لقد تطوّر حدس علم الاصطلاح أو فنّ التسمية الإبداعية مع مرور الوقت وحصول التراكم التجريبي ، فبحلول العصر الإسلامي الأول طرأت مبادرات علمية جديدة كان لعلم الفقه بكلّ مستلزماته المعرفية فضل التنبية على ضرورة اعتماد صياغة معرفية جديدة قوامها الاختصاص بتسمية الظاهرة الفكرة أو الظاهرة الاجتماعية حتّى ترسخ الفكر وأثمر الاعتقاد ، فكان العرب المسلمون يقولون بالأعرابي والمولّد والمخضرم ، والصّحابي ، والتّابع وتابع التّابع ، وعلم الأصول ، وشروط الإيمان ، وقد كان حرص الملمين على مراعاة الحدود الشرعية العامل الحاسم في دفعهم على ترسيم حدود المعتقدات وأحكامها من أجل مراعاة احترام شروطها الحياتية الوظيفية، وقد يكون في المستطاع تسمية هذه المرحلة من تطوّر المعرفة العربية الإسلامية بمرحلة الاختصاص والانضباط والحوصلة ، حيث لا يمكن تسمية الظاهرة إلا بعد الالمام بمقدّراتها الموضوعية ، عن طريق استيعاب شروطها المعرفية المتنوّعة التي تستجمع في مسمّى واحد تحدّده الصّيغة الاسمية للاصطلاح.

لقد تنبّه ابن المعتزّ (296هـ) إلى حقيقة حاجة الحسّ إلى حرية الانفعال بالقيم البديعية دون حاجة منه إلى اعتماد إحصاء الفتوحات الإبداعية، فقد كان البديع يود بصورة عفوية حرّة طليقة في أشعار القدماء ، لذلك فإنّ ابن المعتزّ يعوّل في مفتتح اشتقاق المصطلحات البديعية على حقيقة تفوّت فنّ البديع من كلّ حصر وإحصاء (.. ليُعلم أنّ بشاراً ومسلماً - مسلم بن الوليد - وأبا نواس ومن تقيّلهم ، وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفنّ ، ولكنّه كثر في أشعارهم فعُرف

في زمانهم حتّى سمّي بهذا الاسم ، فأعرب عنه ، ودلّ عليه ..¹⁵ ، ولقد كانت من أسباب توجّه ابن المعتزّ هذا التّوجّه الإحصائيّ التّأسيسيّ التّجذريّ التّعويل على تشخيص المكوّنات الجمالية العربية الخالصة إزاء ما كانت تهبّ على المجتمع العربيّ من أسباب الدّوبان في الثقافة اليونانية المستفحلة آنذاك¹⁶ .

وإنّ في ورود البديع عزيزا نادرا ما يحيل على مشروعية المقولة التي ركّز عليها ابن سلام¹⁷ التي مفادها أنّ بنية الشّعر قديما كانت قليلة مركّزة توافق الانفعال بالهجسة الواحدة فلا تتداعى الواحدة منها إلى ما يجاورها من المتّمات اللفظيّة ، وإنّما احتاج الشّعراء إلى تطويل الشّعر وتوظيف صور البديع إرضاء منهم لرغبات الممدوحين ، حتّى كان ذلك النّزوع إلى تركيب الخطاب الشّعريّ بمثابة الإعلان عن بداية تقصيد الشّعر، وإنّ هذه الطّروحات لموصلتنا إلى تعميق الدّظر في المسائل الجمالية اللانّطة بإبداع فنون البديع ، فلقد سبق للجاحظ¹⁸ أن ركّز على فائدة استطراف الكلام القليل البنية ، لأنّ الكلام إذا قلّ وقع وقوعا لا يجوز تغييره من شدّة ما يتوقّع به من شدّة انسجام عناصره البانية له .

لقد كان ابن المعتزّ قويّ الوعي في التّنبيه إلى ما أقدم عليه من مزيّة افتراع علم البديع ، وهم ما قاده إلى الاعتزاز بتفردّه في ابتداع هذا النّظر حين قال : (..لأنّ البديع اسم موضوع لفنون من الشّعر يذكرها الشّعراء ، ونقّاد

¹⁵ : ابن المعتزّ ، كتاب البديع ، تح: إيغناطيوس كراتشفو فسكي ، دار المسيرة ، د.ط/ د.ب ، ص: 1

¹⁶ : ينظر، دعائشة حسين فريد ، منهج البحث البلاغيّ ، دار قباء للنشر والتّوزيع ، القاهرة

ط: 1977/1

¹⁷ : ينظر، ابن سلام طبقات الشّعراء ، اللّجنة الجامعية لنشر الثّراث العربيّ ، دار التّهضة العربية للطباعة والنّشر ، ص: 11

¹⁸ : ينظر، البيان والتّبيين ، مج: 1 ، ج: 1 ، دار إحياء الثّراث العربيّ ، بيروت لبنان ،

د.ط/ 1968 ، ص: 194

المتأدبين منهم فأما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ، ولا يدرون ما هو وما جمع من فنون البديع ، ولا سبقني إليه أحد ، وألفته سنة أربع وسبعين ومائتين ..¹⁹

لقد مثل انبثاق المصطلح البديعي تشقيقا معتبرا في سياق تنامي الوعي النقدي ، من حيث كان منهج تبنيّه كفيلا بإخراج النظريات النقدية لدى القدماء من إطارها الانطباعيّ المشتت الرؤية إلى فضاءات فكرية جمالية شاكلت في كثير من تجلياتها ما تتنادى به النظريات النقدية الجمالية البنيوية في حداثّة الأدب المعاصر ، فقد نقل الاصطلاح البديعيّ المفاهيم النقدية من مجرد الانطباع النظريّ إلى حقل الإحصاء والتطبيق ، وبالرغم ممّا اعتور تركيز المبدعين على تبني خصائص البديع الإيقاعية والأسلوبية من حيث أصبحوا يتحرّون النظم على منوال قواعده التّنميطيّة ، فقد استطاع نهج التّعاطي مع جماليات البديع أن يؤسس مدرسة نقدية غنية بالتّجّد والتّطور ، ليس يضيرها ما انبرى عليه بعض الشعراء من سرقة بعض الأنماط البديعية وتصييرها في أساليب الخطاب قاعدة للنّظم والمشاكله .

ولا شكّ في أنّ ابن المعتزّ لم يظفر هذا العلم في فهمه خطرة واحدة ، وإنما الأرجح أن يكون قد عانى إشكالاته الفكرية والجمالية لزمن غير قصير ، فهو شاعر يعوّل على العلوم الحدسية التي لا تدرك إلّا بالظنّ والتّوهم ، ثمّ يكون إزاء تلك التّفاعلات التّخمينية قد فهمه فهما جماليا متساندا إلى طبيعة الشعراء في وعي الأشياء ، فابن المعتزّ ، المنظر لجماليات البديع ، ما ينفكّ

¹⁹ :ابن المعتزّ ، كتاب البديع ، ص:58

يصرّح في متن بحثه بإسناد بعض مصطلحاته البديعية إلى الجاحظ على سبيل المثال حين تبنّى عنصر ، المذهب الكلامي²⁰.

ولقد هدته قوّة تحسّس جماليات توقيّع الأساليب البديعة إلى وعي ما لتفاوت مراتب الألفاظ وخروجها عن مستحقّاتها البنيوية النحوية من لذة قائمة على حبّ الذات المراوحة بين قيم الأشياء ، فتوصّل إلى تشخيص جماليات الاستقطاع الأسلوبي الذي ينتجه اعتراض كلام في سياق كلام آخر استثناءً ، فكأنّ لتداخل أزمان الأحداث لداذة التّواشج والتّشاكل ، غير أنّ ابن المعتزّ يختلط عليه الأمر حسب نظرنا فيجاور بين ظاهرتين تنتميَان لحقل جماليّ واحد مثلما يبدو من إشفاعه باب الاعتراض بباب الخروج من معنى إلى معنى ، حتّى إذا أسهب في استدعاء المصنّفات البديعية أشكال عليه الأمر وتداخلت لديه المفاهيم ، فصار يتوهم المفترقات في الموحّدات ، وغدا ينظر إلى المسألة الواحدة من زوايا متعدّدة يتوهم فيها التّنوع وهي قائمة على المؤدّي الواحد ، فتتحلّ قوى الاصطلاح لديه ، يخرج إزاءها من التّسمية والاصطلاح إلى الملاحظة والتّوصيف ، ليكون لنا في اضطرابه هذا تأكيداً فيصلا لما ارتأيناه بأنّ مصطلح البديع نما وترعرع وفق حاجات جمالية معرفية ، كانت بمثابة الحلقة الواصلة بين نقد انطباعيّ قائم على الرّغبات الذاتية الخالية من الموضوعية ، وبين مرحلة نقدية واعية لتوصيف المهمّات الفكرية الجمالية التي يجب على النّاقذ توخّيها.

ولم يكن تركيزنا على مداخلة موضوع الاصطلاح النقدي انطلاقاً من الوجهة البديعية إلاّ لكون هذا الحقل الدّلالي الذي نراه ملائماً بين جهتي الإبداع

²⁰: ابن المعتزّ ، كتاب البديع ، ص: 53.

الفنّي والتفكير النقدي العلمي ، إلا لكون الحسّ العربيّ والعقل معا مرتبطان
أوثق رباط بالقيم التفكيرية التي يستحوذ عليها مبلغ هذا العلم الراسخ في الأدبية
العربية منذ أصولها الأولية بدون منازع.

وتأتي خطورة البديع التي هي أهمّيته في مفهوم النقد الجمالي انطلاقا من
كون هذا المنحى يعتبر المميّز الأوفى لشعريّة شاعر²¹.

وتبدو نجاعة الوعي النقدي لمصطلح البديع ها هنا ذات جدوى بالغة
حيث يتمّ بموجب وعي تجليها التمييز بين شعر وشعر ، استبطانا لمفهوم أكثر
عمقا لمفهوم الشعريّة في زمن طغى فيه الخلط بين الشعر والنظم واستفحل ، فقد
اتضح بعدئذ أنّ البديع لا يحضر إلا عزيزا ، ولا تنقشع عنه فضاءات الكلام إلا
طريفا نادرا ، وهو بحفاوته تلك مكسب لدلالات التعجيب والهزة ، وفي نفس
المتلقي الغبطة والأريحية .

إنّ أهمّ وظيفة تشخّصت في النزوع النقدي البديعي كامنّة في الوظيفة
التطبيقية التي بات يستحوذ عليها علمه ، حيث ارتبط بإجراءات نقدية تطبيقية
نراها على أنّها كانت المخلص الملموس للدّهنية النقدية الأدبية العربية القديمة ،
فقد تشخّصت وفق تلك الالتزامات جملة من الإنجازات النقدية الملموسة التي
كرّست التفكير النقدي الأدبي التقعيدي الذي ظلّ يتوق إلى تأسيس الرؤية
الأدبية العلمية التي سوف تبقى محافظة على نكهتها الفنية لأننا نعتقد أنّ العلمية

²¹ : ينظر: عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الأعجاز ، تح: السيّد محمّد رشيد رضا ، دار المعرفة بيروت
لبنان ، 236 يبلور عبد القاهر الجرجانيّ مفهوم الشّعر أو الشّعريّة بكلّ جرأة مخالفا مفهوم القدماء
فيكون بفضل هذا الالتفات قد فتح باب ضرورة تطوّر المناهج النقدية بين القدماء والمحدثين مثلما
ينتصر صراحة لأشعار المولّين معطيا إياها مصداقية المعاصرة وخالف مفهوم الشّعر لدى أبي
عمرو الشّيباني ، وثعلب ، وغيرهما ممّن يتحمّسون لتفضيل كلّ قديم على كلّ محدث.

ذات مستويات تكون العلمية الأدبية أو بالأحرى الموضوعية الأدبية هي إحدى تجلياتها الوظيفية.

فالإبداع إذا استحكمت بنيته وترسّخت أبعاده الحسّية كان كفيلا بتشخيص وظائفه الجمالية ، قمينا بحفظ خصائص الانفعال بمميّزاته الأسلوبية، لذلك لم يجازف ابن المعتزّ في إحصاء الظواهر البديعية التي لم ينضج تداولها واكتفى بما ترسّخت في الاعتبار البلاغيّ ، حتّى كأنه من هذه الوجهة مهتمّ بإحصاء المكرورات ، على شاكلة ما اتّبع فيه الشعراء العرب مبتدعات امريء القيس خاسف عين الشعر، وباري نَبَعَتُهُ فكان ممّا استجلّاه ابن المعتزّ أن تخيّر توقيعات أسلوبية بيانية استطرفها لورودها مبتدعة نادرة بديعة ، فكان يرى إلى مفهوم البديع على أنّه الجديد لا فَرْدَ دَعَا سبقه ، فشخص : الاستعارة التي أضحت فيما بعد تُصنّف إلى استعارة تقليدية ، واستعارة بديعة أي جديدة طريفة²².

وبما أنّ فنّ الاستعارة فاش في أحاسيس الشعراء متمكّن فقد هيمن مصطلحها على حيّز غير قليل من كتاب ابن المعتزّ ، ثمّ أشفعها بذكر فنّ بديع التّجنيس الذي هو ألحق بالمكوّنات الصّوتية اللّسانية للأساليب اللّغوية منها إلى الدّلالات والمضامين ، لأنّ في طبيعة اللّسان العربيّ أن يلتذ المتجانسات الصّوتية فيكون له تحسّس بالغ للفوارق التّلفيفية اللّائطة بتلك الاعتبارات ، في موادّها الصّوتية ومخارجها وأزمان مقاطعها ، وبنياتها الصّرفية ثمّ انتظامها

²² لكي يشخص ابن المعتزّ هذا التّميّز يلجأ إلى استعمال المتممات الوصفية اللاحقة بمصطلح الاستعارة فيقول : بديع الاستعارة ، ومعتادها.

مراتب الألفاظ البانية لسياق الكلام ، والتجنيس ضرب من الزّخرف الذي يقوى على مشكلة النّسوج التشكيلية الغالبة على الفنون الإنسانية الأخرى .

وإذا انتهى ابن المعتزّ من تفصيل المقال في موضوع التّجنيس تلاه بذكر المطابقة التي يقابلها في النقد الحديث مفهوم البنيات الضّدية ، أي تدالّ المتناقضات وإنّ لهذا المفهوم اعتبارات فلسفية تتجذر منطلقاتها الأولى من تألف المتحرّك والسّاكن ، ثمّ يأتي إلى ذكر ردّ أعجاز الكلام على ما يقدّمها، فيخرج الاصطلاح عندها من إطلاق المصطلحات الاسمية إلى تصييرها في شكل أحكام نقدية بالغة التّعقيد فتصيب المكوّنات الأسلوبية الشّاملة للخطاب .

ولتمحيص وقوف التّداول الأدبيّ لدى القدماء عند حدود التّمتع السّماعيّ بجماليات الخطاب ، لا تحدوهم إزاء ذلك نيّة في نقد مقولات الخطاب ، فقد ألفينا استواء ذلك المناخ على عهد ابن طبا الطوي²³ ، إذ لا نصادف بين موضوعات كتاب "عيار الشّعر" ما يثبت توجّهه إلى إحصاء علامات البديع ، وإنّما كانت جهوده فيه منصّبة على توصيف القضايا الأكثر عمومية من مثل شروط عمل الشّعر.

لم يغنِ الاصطلاح البديعيّ غنى مصطلحات حقول التفكير الأدبيّ الأخرى من مثل : الاصطلاحات النّحوية ، أو الصّرفية أو العروضية فبهرّد دخول الأدبية العربية الإسلامية معترك التفكير التّحديثي صارت في أمس الحاجة أكثر من أية مناسبة سابقة إلى تجريب أساليب التفكير الإنساني العالمي وقد ألزمها ذلك الانخراط ضرورة التفاعل مع المكوّنات الفكرية العالمية

²³ : ينظر، عيار الشّعر ،تح: محمّد زغلول سلام ، دار منشأة المعارف بمصر ، الاسكندرية ، د.ط/د.ب
،ص"43/42.

الأخرى والتي لم يكن للعرب والمسلمين سابق عهد بها خاصة منها التفكير النقدي العلمي المتصل بأسباب التفاعلات الحياتية الأخرى من علم نفس وعلم اجتماع وعلم إحصاء ، على أن نهض بمدلولات النقد الاصطلاحي الفنية تراثيا أعلام من النقاد من مثل البقلاني ، والقزويني استكمالا لما احتفروا ابن المعتز في بادئ أمر هذا العلم بالفن ، فكان من أمر تناسخ سياقاته الابتداعية ما أغنى المصطلحات الأولى التي استكشفت في بادئ الأمر ، لذلك فإن ندرة المصطلح من ندرة هذا الفن الذي لا يرد إلا عزيزا مُحْتَفلًا به .

2-4- الغسل والإخلاء سبيلا إلى تفعيل القيم التأويلية :

إن من أهم الإشكالات التي صادفت سيرورة الإبداع الأدبي وقوع النقاد العرب القدامى في مغالطات جمالية تبَنُّوها من منظور قاصر لا يفي بحقيقة الإمتاع الفني التي يتوخى الإنسان ذوقها في نشاطاته الإبداعية ، من ذلك تعنتهم في اشتراط الدلالات المعنوية الفكرية الواضحة المعالم لكي يقضوا للشعر بالفائدة .

ولعل أقوى ما يتواشج معه مفهوم الإخلاء أو الغسل وسمهم بعض الشعراء بالقصور عن الغايات ، فكأنه قاصر عن حصر المعنى والإيفاء به ، فهم يسعون بهذا المسمى إلى تغليب الشعراء في إصابة المعاني، بالرغم من قيام الدلالات الشعرية على الحدس والثوهم والوسواس ، فليس يقوى عقل بعد ذلك على الحجج التي يتوخاها الشعراء في أشعارهم .

وأما مصطلح الغسل أو الإخلاء فهو من المصطلحات المغمورة التي لم يكتب لها أن تنال نفس فرص الإشهار التي حظيت بها الجماليات البديعية

الأخرى، أمكن للباقلاني²⁴ أن يتنبّه إليها، قد جاء استكشافها نتيجة حتمية لفضّ الخلاف بين القائلين بجدلية الصّدق والكذب في المعاني الشعريّة، ولقد سبق أن استرعى انتباهنا تفاوت النّقاد القدامى في تقدير شعر بعينه ورد متداولاً بين كثير منهم، ألا وهو الشعر القائل:

ولمّا قضينا من منى كلّ حاجة ومسّح بالأركان من هو ماسح
وشدّت على حذب المهاري رحالنا ولا ينظر الغادي للذي هو رائج
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطيّ الأباطح²⁵

فقد اعتقد بعض النّقاد بعدم جدوى هذا الشعر لذهابه مذهباً في تمعين دلالات الشعريّة التي لا تظهر، فتوخّوا بذلك المطلب أمراً يشين جماليات الشعر ولا يزينها، وذهبوا إلى الفصل بين اللفظ والمعنى مقرّين بمحاسن إيقاع أساليبه، ناظرين إلى عدم جدوى جانبه التّمعينيّ، حتّى جاء عبد القاهر الجرجاني في أسرار بلاغته، أو دلائل إعجازه²⁶ بما يبّد هذا الزّعم، ويسفّه هذا التّخريج، فولّد مضامينه البيانية لتغنى بعد إجداب، وتتشخّص بعد إحمال، وشاكل في قراءته الجمالية لبديع هذا الشعر بين حاجة الأساليب الشعريّة إلى التّماهي في المتمّمات اللفظية الباثّة للظنّ والتّخالج مجانسة لحقيقة تماهي المعاني الشعريّة إلى الظنون والأوهام استيفاء لمتطلّبات الحدس، فالمعاني

²⁴ دلائل الإعجاز، ص: 115

²⁵ ابن قتيبة، الشعر والشّعراء، تح: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط: 1980/1، ص:

44 ومن شدّة ما حازه هذا التّموذج الشعريّ من غواية الزّخرف البديعيّ أن فرض حضوره التّطبيقيّ على مبحث جماليّ في نظرية اللّغة والجمال، فكان أن استفرغ في شأنه الباحث كثيراً من القضايا الإيقاعية والمعاني التّأويلية، ينظر: دتّامر سلوم نظرية اللّغة والجمال في النّقد العربيّ، دار الحوار للنّشر والتّوزيع، ط: 1983/1، ص: 211/210.

²⁶ ينظر، دلائل الإعجاز، ص: 59

مطروحة في الطريق ، وهي شائعة في وعي المتلقي لا في متن الخطاب بالضرورة ، واللغة ملك السامع لا المنشئ .

ونعتقد أن ليس لنا من غاية في إمساك موضوع التفكير التقديرى أى المعيارية بتطرقنا إلى موضوع المصطلح البديعى إلا لكون هذا التوجه يعتبر المنزع الأصيل فى حيز التفكير النقدي الاصطلاحي الذي سيظل يمثل المبرر الحاسم والأقوى فى المنهجية التي سيتبنّاها التفكير النقدي الأدبي العربى فى مرحلة مشاريع التحديث الفكرى المستجدة.

الشعر المغسول : هو الشعر العارى من كل فضيلة إبداع ، وإنما تكون حال غسله تلك بمثابة الثربة البور التي تهىء الفضاء لقيام إيقاع البديع خلالها استحكما لبث الذرة والنكتة والتعجيب .

وأما الشعر الخالي (لإخلاء) فـ شعر غلب عليه التلفيظ وعري من التضمين المعنوي الصريح ، فاندست دلالاته وخفيت حتى لا يكاد تبين إلا بالتأول والاستقراء والاستدلال ، وللمتفكر المتأمل أن يبادر إلى قياس مدى أهمية القيمة التفكيرية التقديرية التي تنطوي عليها المواضيع النقدية الأدبية العربية التراثية ، ولنا أن نعتبر أن التوصل إلى ثبوت مثل القيمة النقدية التي تدل على إشكالية ثنائية الدلالة الشعرية وهي تنطوي على المقدرات البلاغية الروحية المتفلتة من الاعتبارات التقديرية أي إثبات الحكم التقديرى فى تشخيص الدلالات والأفكار والمعاني إنما يعدّ كل ذلك من المواقف الحرجة العويصة التي تستدعي فطنة تفكيرية بالغة الحساسية والتي يمكن اعتبارها

مسألة داخلة في حكم الإجراءات النقدية الداخلة في اعتبار الفصل بين الأصل والدّخيل مثلما ظهرت وتشخّصت في كثير من الكتب النقدية الترجمية²⁷.

3- القيمة اللغوية والصرفية للنزوع الاصطلاحي:

لو تأملنا حقيقة الصيغة المعرفية للمصطلح النقدي لما صادفناها تخرج عن كونها استعمالاً خاصاً للغة العادية ، بالقدر الذي يجعلنا نقول إنّ الصيغة الاصطلاحية لن تتعدّى في حقيقة مكوّناتها اللفظية أو الصوتية أن تكون عبارة عن لغة مركّزة في شكل ألفاظ مفردة أو مركّبة ثنائية أو ثلاثية تختصّ بالإحالة على مرجعية فكرية محدّدة ، ويمكن لهذا التركيز الدلالي أن تظهر آثاره القرائية والدلالية بصورة واضحة ومباشرة على حيثيات تداول الصيغة الاصطلاحية ، فهي إمّا أن تصيب مبتغاها الوظيفي وإمّا أن تجانبه ، لذلك فإنّنا نرى المصطلح النقدي محكوماً بوظيفة دلالية لا تقبل المجاز²⁸.

وقد يكون من الموضوعي القول : إنّ كلّ ثقافة معجمية اصطلاحية مرهونة بثورة نجاعتها المعرفية وبما تقدّمه من ضبط علمي لمختلف الدّاتاجات الفكرية الإنسانية التي قد تنتزّل إلى الواقع الثقافي منقطعة عن الأسباب التاريخية التي تحفظ لها تواصليتها القومية ، ولقد بلغ بالثقافة العربية الإسلامية الحديثة التّحدّس المفرط لدى الإقبال على توظيف ثقافة الاصطلاح المعرفيّ من حيث بات ينظر فريق من رواد الحداثة العربية إلى مداخلة هذه المعارف بكثير من الحيطة والحذر لا شيء إلا لكون هذا المنهاج العلمي قد استقرت

²⁷ : ينظر: تزفيتان طودوروف: الشّعريّة ترجمة شكري المبخوت ورجاء بن سلامة ، دار توبقال للنشر المغرب ، ص:17

²⁸ : ينظر: مركز دراسات الوحدة العربية ، ندوة : اللغة العربية والوعي القومي ، ط:1 بيروت ، ص:240

تجاربه الأولية من حيّز التجربة الثقافية الغربية ، وبالرغم من ثراء مداليل الثقافتين النحوية والصرفية العربيتين بالنزوع الاصطلاحي التطبيقي فقد ظلّ علم المصطلح يشكّل حرجا في الواقع الثقافي العربي .

ولنا أن نستيقن حينئذ أن الإجراء الاصطلاحي في حيّز تداولية النقد الأدبي العربي نستطيع تجدره وفق المستلزمات البنائية الخاصة بالصيغ اللغوية أو الصرفية التي تنتظم الصيغة اللغوية الاصطلاحية وهي التي من طبيعتها أن تتأدى إما في شكل مفردة صرفية ذات دلالة علمية أي شبه خالية من الفائدة الدلالية المجازية وغالبا ما يتأدى هذا النموذج الاصطلاحي وفق صيغ وضعية تعتمد قوة توليد الكلمة الاصطلاحية وغالبا ما تكون مركزة تنحو وجهة الإلمام بالفائدة النقدية أو الفكرة الفنية والجمالية الغالبة على الموضوع الأدبي المعين ، فالدقة إذا هي المنزع الدلالي الثابت في تداول المصطلح النقدي²⁹.

ويبدو أن الدلالة النقدية الاصطلاحية بحرارة انقذافها من أتون التجربة الإبداعية لا تملك إلا أن تتشج بكثير من إيقاع الإتياع فتأتي وفق الصيغ المتسارعة الظهور أي تلك التي تطفّر ولا تتشكّل والتي تنقذف ولا تتعقّل ، لذلك فالصيغة الاصطلاحية خاصة فيما يتعلق بالدلالات الأدبية ذات الحركية تستمدّ صيغتها الصرفية أو البنائية انطلاقا من الموضوع التي تستنتج منه ، وقد لاحظنا تبعا لثبوت هذه الحقيقة أن القيمة الاصطلاحية كلما خالطت الأجواء الأدبية الأكثر إنشائية وإيقاعية كلما كانت متفلّنة متنوّعة غير ثابتة على صيغة أو تسمية ما فالمناسبة إذا بين الصيغة النقدية الاصطلاحية وبين

²⁹ : ينظر ، د. صلاح فضل ، إشكالية المصطلح الأدبي بين الوضع والنقل ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس المغرب 1988، ص: 70/69/68.

المرجعية الأدبية المنبثقة عنها لا تدلّ الدلالة الآلية دائما بل هي تتماهى
وتتداعي إلى ما يمكن أن يسكن الفكرة الأدبية التّواة أي تلك الفكرة الأدبية التي
ستظلّ تؤثّر على الرؤية الإبداعية المستقبلية .³⁰

³⁰ : ينظر ، د. صلاح فضل ، إشكالية المصطلح الأدبي بين الوضع والنّقل ، مجلة كلية الآداب والعلوم
الإنسانية بفاس المغرب 1988، ص: 72/71.

الفصل الثاني

1-1-1 معترك التصوّر الاصطلاحيّ : إشكال الرؤية الاصطلاحية.

1-1- الوجّه الاصطلاحية في نقد الشعر العربيّ :

يتأدّى سياق الاصطلاح النقدي ضمن مفاهيم نظرية أو تطبيقية غالبا ما تشكّل مفاهيم فكرية هي روح العصر ، والذي يفتّش في الإجراءات التداولية الخاصة بكلّ مرحلة ثقافية أدبية الخاصة بالأجيال الأدبية أو موجات التحديث الأدبي يستطيع أن يقف على خلاصات أو تركيزات نقدية هي التي تتأوّل ج مداولها النقدية متجلية في شكل ابنثاقات نظرية تتلخّص في شكل إجراء اصطلاحى قمين بأن يهيمن على الفاعلية النقدية لحقبة أدبية معيّنة ، ومن النّقاد من يستطيع أن يتجاهل الآثار النظرية والتطبيقية معا التي خلفتها مدرسة حداثة الأدب العربيّ المعاصر ، فقد عبّئت كوكبة من الرياديين الإبداعيين والنّقاد العرب تحدوهم روح الاستكشاف فطفقوا يلونون بكل استجداد منصبة آراؤهم على الكيفيات التي يستطيعون بفضلها تجاوز العجز العربيّ في ميادين الحياة المختلفة ، وقد تحمّل النّقد الأدبي العربيّ خلال تلك المسيرة كثيرا من المواقف الكلامية الحادة الشرسة هي التي كان يتبنّاها سبيلا للتجاوز والمغايرة ، حيث لا يمكن تجاهل ما كان لهذه الذّبرة من آثار فعّالة في حركية ابتداع المصطلح النقدي الأدبي بالنّظر إلى ما تساند إليه الموقف الفكري العربيّ المتبنّي لرؤية المخالفة والمغايرة من شجاعة لاقتحام المداخل الفكرية التي ظلّ الفكر العربيّ يرتاب في مزاولة فلسفاتها التحديثية.

وتعتبر الحاجة الماسّة إلى الجدّة من أهمّ المحقّرات الفنية والموضوعية الداعية إلى استدعاء التفكير الاصطلاحى حيث انتهت كلّ المدارس المدرسية التقليدية إلى الانغلاق والاحتباس والجمود (..فإذا نحن نحسّ أنّها عاجزة عن

أن تحقق الغرض من الدراسة الأدبية بل هي منحرفة بهذا الغرض على نحو ما رأيت من النقد لها ، وإذا التاريخ الأدبي يجهد في أن يجد له المخرج من الأجواء الحبيسة التي شدته إليها فلا يعيش في مواضعها ولا يخضع لإيحاءاتها)³¹ .

وبحسب تأملنا لحقائق العوائق التي كانت تعترض سبيل الإبداع النقدي النظري الذي من طبيعته أن يظلّ محافظاً على الدور الريادي التحفيزي لمقدّرات احتمال النظريات الإبداعية فقد وجد النقد العربيّ الذي عبئ بمداخلة أوّليات التحديث الأدبي العربيّ نفسه رهين الرؤية التحليلية التي لا تكاد تتجاوز معطيات الخطاب أيّمكوّناته اللغوية والفكرية ، ومن ثمّة فقد ترتّب على هذا السلوك الثقافيّ التفكير طبعاً محافظة ظلت ترى إلى الحداثة والتّوليد في حيّز الدّنظير النقدي من منطلق أكثر تعقلاً لا يستطيع الانتقال من تقاليد الدّقد الأدبي العربيّ القديمة إلى شروط التفاعل الإبداعي الجديدة ، ومن ثمّة فقد صار النّص أو الخطاب الأدبي في حاجة ماسّة إلى رؤية نقدية تحرّره من مغالق التجربة النقدية المحافظة، لقد بات لزاماً على التفكير النقدي أن يتجاوز المقاييس التقييمية المتوارثة في شكل تفكير مدرسي لا يستطيع النقد الإبداعي اختراق مكوّناته الفكرية والأخلاقية ، حيث ترسّخت جملة من الاعتبارات في السلوك الثقافيّ العربيّ وأوجدت لها نصوصاً شبيهة بالالتزام السياسي والاجتماعي ربّما تكون النّظم السياسية العربية التقليدية قد صيرتها مشروع هيمنة فكرية تحافظ بواسطتها على صلاحياتها الحيوية بين فئات الشّعوب

³¹: شكري فيصل ،مناهج الدّراسة الأدبية في الأدب العربيّ ، عرض ونقد واقتراح ، ط:5 ، دار العلم للملايين 1982، ص:68

العربية وعلى اختلاف مستويات وعيها الاجتماعي والسياسي ، دون أن يطمح التفكير العربيّ إلى البحث عن اقتراح البديل المغاير لتلك المعطيات التقليدية.

ولنا أن نطمح إلى اعتبار حتمية ضرورة الانتقال من التفكير النقدي التقليدي إلى مجالات التفكير النقديّ الأدبي الجديد المتجدّد الذي من شروطه التفاعل الحقيقي مع مكوّنات الخطاب الأدبي بالرّجوع إلى الأصول الانفعالية الإنسانية التي تشكّل المادّة الفنية لخطاب الإبداع الأدبي ، ولقد أتى في مقدّمة هذا التحوّل ضرورة الاهتمام بترقية الرؤية المحلية أي الرؤية الإنسانية المحلية التي تركز على التجربة الدّاتية الغنائية للإنسان العربيّ " على اعتبار أنّ العالمية لا مجال لبلوغها إلا بالتشبع بالقيم المحلية ، فالإنسان الفنّان لا شكّ في أنّه متشرّب آثاره الإبداعية انطلاقاً ممّا يرتئيه من صفاء الرؤية ووضوح البعد الإنساني الذي تنتظم في ضوئه كلّ المسوّغات الفنية البانية لجمالية الأدب الإنسانيّ ، وانطلاقاً من حقيقة ما يمليه هذا التّفهم والتّصور فإنّ وظيفة المصطلح النقدي أتى في سياق التجربة النقدية الأدبية العربية إنجاحاً لمهمّة تحقيق الأدبية الحقيقية بكلّ ما يتضمّنه هذا التّوجّه من إخلاص ضمنيّ لحقيقة الفنّ والجمال ضمن شروطهما الإنسانية التي لا شكّ في أنّ تجربة الإنسان العربيّ بكلّ تشكّلاته الحياتية والبيئية يشكّل أهمّ دعائمها العالمية³² .

³²:شكري فيصل ، مناهج الدّراسة الأدبية في الأدب العربيّ ، ص: 217/216.

2-1 مداخلة النقد الأدبي العربي لفضاء الحداثة:

لعلّ من أبرز ما يتّصل به الإجراء الاصطلاحي هو تعويل هذا الإجراء النقدي العلميّ التّطبيقيّ على مداخلة الحداثة انطلاقاً من تسلّح التفكير النقديّ الأدبي العربيّ بشروط الضّبطين العلمي والمنهجي للوظيفة النقدية ، وبالتالي فإنّنا نفهم أنّ كلّ نزوع في تحقيق هذه الوجهة النقدية الأدبية الجديدة لابدّ من أن تترك ثقافة النقد الأدبيّ التقليديّة أي بمفهوم الشّرحي التّحليليّ الذي يجري في صيغته الإجرائيّة الوظيفة الإنشائيّة .

ولعلّ من أبرز مقوّمات الدّخول إلى طقس الحداثة الأدبية ومنها النقدية هو تعويل التفكير النقديّ الأدبي العربيّ على اختصار القضايا والمسائل النقدية في التركيز الاصطلاحي الذي يحاول أن يجمع بين الفلسفة النقدية وبين الإجراء التّطبيقيّ ، وقد كان لزاماً على النّاقّد الأدبي السالك هذا المسلك أن ينزع نزوعاً نقدياً أدبياً شبيهاً بالتّفكير النقدي المدرسي الذي هو بدوره يعوّل على الممارسة النقدية المدرسية التي عادة ما تتأسّس على تبني معجم اصطلاحي نقديّ معيّن يفضي بها إلى تبني المفاهيم والقضايا الموحّدة، ونجد من الضّروري هنا أن نلجأ إلى ما يشبه إحصاء المحاور النقدية الحداثيّة التي عكست هذا الاهتمام النقدي الاصطلاحي أوّل الأمر ، ونرى أن لا أقوى من حركة الحداثة الشّعريّة في هذا المجال ، فالنّقاد جميعاً باتوا يدركون مدى الآثار الإجرائيّة بل وحتّى الفلسفيّة التي أفرزتها حركة الشّعور الحرّ أو شعر التّفعيلة بالرّغم من كلّ التناقضات التّطبيقيّة أو التّنظيريّة التي تخبّطت فيها في بعض الأحيان وليس أدلّ على ذلك من تخليطهم في كثير من التّعريفات الاصطلاحيّة الواقعة في دائرة نقد شعر التّفعيلة ، حيث نرى أن لا بحث في الموضوع آثار

القضايا والمسائل النقدية المتعلقة بالموضوع من كتاب عزّ الدين إسماعيل الذي هو "الشعر العربيّ المعاصر قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية" الذي شكّل لفترة طويلة العمود الفقريّ والهاجس الأقوى في تناول الحداثة الأدبية العربية.

ولقد جسّد عزّ الدين إسماعيل كثيرا من مقتضيات الرؤية النقدية الأدبية الحداثيّة التي إن عدلنا في تداولنا ألحقتها في كثير من تجلياتها بالتفكير المعاصر أو العصريّ إذا سمحت بذلك التسمية الاصطلاحية ، وقد فتّش الباحث مرارا وتكرارا عن للأبواب الكفيلة بادّعاء مسوّغات تلك الطّروحات المغامرة المشاكسة والتي ظلّت تحدث خلافاً حادّة تجلّت في المناورات الفكرية المنجرّة عن ذلك التّماس الفكري بين مدرستين هما مدرسة التقليد ومدرسة التّحديث. وقد ظلّ الباحث خلال كتاب الحداثة والمعاصرة يعوّل على تدوير مصطلحات عامّة اقتضتها مبادئ التّمهيد لطرح إشكال النقد الاصطلاحي حيث حصر تلك الأسباب في ضرورة التّجديد الأدبيّ وخاصّة في حيّز الإبداع الشعريّ³³.

إنّنا نعتقد جازمين أن لا حداثيّة يقوى العقل على ضبطها بالآليات والمناهج والتّقديرات الوظيفية إلا إذا كانت تنطلق المنطلق الصّحيح الصّافي المخلص للهوية الإبداعية في حيّز الألب والفنّ معا.

ولعلّ الذي يقبل الحسّ العربيّ التّحاور والتّفاوض معه حين يتعلّق الأمر بالمستجدّات الروحية أو الحضارية هو أن يبني موقفه على قاعدة أن لا إفراط

³³ غالبا ما يعوّل دكتور عزّ الدين إسماعيل على المسوّغ التّجديدي في طرح النّظريات النقدية المؤسّسة على التّجريب الاصطلاحي الطليعي الرائد من مثل القيم الجديدة ، تجربة الشعر العربيّ المعاصر ينظر ، الشعر العربيّ المعاصر قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية ط:3 ، دار العودة بيروت 1981 ، ص:6

ولا تفريط ، فالاعتدال والتوازن هما الوسيلة الوحيدة الأقوم والأسلم التي يستطيع بها كلّ حسّ مداخله المستحدثات التي يجد نفسه في حاجة ماسة إلى الاستعانة بها في فهم العصر أو الواقع ومنهما فهم الذات ذاتها.

ومثلما هو واضح من أوليات الكتاب النقدي للشعر العربي المعاصر قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية "فقد تحرّى الناقد وضع كثير من التمهيدات التوضيحية التي تحدّد الإطار النظري الذي تتحرّك ضمنه أفكار الكتاب النقدية المستجدة ، حيث يعترف الناقد بتلك الأزمة التواصلية بينه وبين القارئ فيقول: (... فقد كان لازما أن أقدم بين يدي الكتاب تمهيدا أحدّد فيه معنى العصرية التي تعدّ إطارا للشعر الذي أدرسه ...)³⁴ ومثلما هو واضح فإنّ الناقد بالرغم من المكانة العلمية التي ظلّ يحظى بها بين نقاد جيله إلا أنّه يغرق في تقديم المبررات التي هي دالة ضمنا على شدة تخوّفه من عدم تقبل المثقف العربي لطروحاته الحداثيّة ، وبالرغم من الاعتراف بحقيقة كون كلّ ذات منخرطة في تعاطي نشاط الكتابة والتفكير النقدي خاصّة منها تلك برزت متصاعدة الأصوات والعلامات في الفترة هذه إلا أنّ النقاد ما فتئوا يتهيّبون مداخله الطّروحات التي استوجبتها ثقافة الحداثة تبعا لما ظلّوا يعتقدونه من حقيقة تمسك المثقف العربيّ بعاطفة الاعتزاز بالمقومات الثقافية التراثية ، بالنظر إلى إجداب الواقع الحاضر الذي لم يمنحه سوى الخيبات السياسية والاجتماعية المتتالية باستمرار.

وإذا كان هذا الذي سلف تداوله صادرا عن مبتدئ في حقل الدّنظير الحداثي فإنّ النّقاد الأكثر تواصلا مع فلسفة الحداثة ظلّوا يعكسون كثيرا من

³⁴: دعزّ الدين إسماعيل ، الشعر العربي المعاصر ، ص:6

إشكالات الاصطلاح النقديّ سواء أعلق الأمر بالممارسة النقدية النظرية أم بالممارسة النقدية التطبيقية ، فالأمر سيّان حيث ظلّ الناقد العربيّ الحداثي يحاول صناعة التفكير الحداثي وإن ارتبكت الذات العربية أمام مقتضيات الرّاهن إلا أنّه أي الناقد العربيّ الحداثي ظلّ يشكّل ثنائية وظيفية طرفاها المبدع الحداثي والفقد الحداثي الأكثر تشبّعاً بالرّؤية المستقبلية للأدبية العربية.

وليس بعيدا عن تلك الأعمال النقدية التّنظيرية الرّائدة نجد ذات الهاجس التّمهيدي الحذر المتخوّف يفترش له ويبسط أكثر من عذر في مداخلة طقوس الحداثة الأدبية ، حيث سادت طبيعة تعريفية قوامها أن يعمد النّاقّد إلى تقديم تمهيد نظريّ يعرّج خلاله على التّعريف اللّغوي المؤطّر للمسعى التّنظيري فيقول: (تعود 'الحداثة' لغويا إلى الجذر الثلاثي : ح، د، ث وحدث الشّيء يحدث حدوثا وحداثة وأحدثه فهو محدث وحديث وكذلك استحدثه أمّا معنويا فحدث الشّيء أي وقع وحصل وأحدث الشّيء أي أوجده ، والحديث أي إيجاد شيء لم يكن والحديث أو المحدث هو الجديد من الأشياء)³⁵.

ويبدو هذا المسعى النقدي التّنظيري المرتاب في مداخلة موضوع الحداثة الأدبية العربية يحشد أكثر من مسوِّغ في ريادة الموضوع ، وليس غريبا أن نصادفه يعود إلى المعاجم اللّغوية التراثية أو بالأحرى التقليدية ترسيخا للمذهب وتأصيلا للمذهب داخل الحداثة ذاتها ، من ذلك إلمامه بمعجم ألفاظ القرآن الكريم، ومجامع اللّغة والعربية التي نراها في كثير من المناسبات تقوم مقام المشرّع للفكر الأدبي العربيّ الحداثي خاصّة في سلوكه الثقافي الاصطلاحي ،

³⁵د. خليل أبو جهجه ، الحداثة الشّعريّة العربية بين الإبداع والتّنظير والنّقد دار الفكر اللبناني ، ص:15

ومثلما هو باد لنا فإنّ الأزمة لم تكن أزمة التسمية الاصطلاحية بقدر ما كانت أزمة للذات العربية المثقفة أي تلك التي كان الزعماء السياسيون العرب يعوّلون عليها كثيرا في تحقيق مشاريع الثقافة القومية العربية الحديثة.

وبالنزول إلى أرضية واقع النقد الأدبيّ العربيّ الحداثي وفكّا لكثير من مظاهر الإشكال التّنظيري الذي ظلّ يخيم على الرؤية النقدية الرعبية الحديثة فقد صادفنا كلّ مدخل ثقافة الحداثة لا يغادر القضايا التّمهيدية في أوّل كلّ إجراء تنظيريّ إلا بعد بسط كثير من الأسباب والمسوّغات الداعية إلى ريادة الحداثة الأدبية العربية ، لأنّ الناقد العربيّ بات يعلم علم اليقين بأنّ ثمة تباينا طافحا بين واقع المجتمع العربيّ وبين طموحات الأدبية العربية المؤسّسة على النّخطّي والتّجاوز لأنّ السرّ كلّ السرّ كان ينبني في لعبة التّخطّي التي من وظيفتها غير المعلنة الافلات من قبضة حقيقة الواقع العربيّ الملموس الذي لا يحتوي على أيّة رؤية إنتاجية تبشّر بتحرير الطّاقة العربية أمام تحدّيات ثقافة العولمة التي حشدت كلّ الآليات والأدوات لإرباك المبدع العربيّ ، بعدما أغرته بكثير من المفاهيم الفلسفية تحت اصطلاح العالمية أو الإنسانية لذلك فقد ظلّ مصطلح الحداثة (...مصطلحا نافذ الاستعمال على المستوى الأدبي شعرا ونثرا شريطة أن يتمّثل هذا المصطلح مع الجدة من حيث للسّمات والدلالات زمنيا وفنيا وقوميا)³⁶ .

ولا سبيل إلى قراءة الإجراءات التّمهيدية والتّوضيحية الغالبة على مقدّمات الدراسات النقدية التي أسّست لحداثة الأدبية العربية إلا في ضوء

³⁶د. خليل أبو جهجه ، الحداثة الشّعريّة العربية بين الإبداع والتّنظير والنّقد دار الفكر اللبناني ، ص:17

كونها كانت تأتي بمثابة الإطار التبريري الذي يفاوض المتلقي ويؤهله لأن يكون في مستوى التلقي الجديد الذي قد يضطر إلى الاستعانة بالمقدّرات الفكرية والفلسفية والنقدية التي لم تنتجها أرض الواقع العربيّ الراهن ، ولنا أن نتأمّل كيف تبين لنا تلك المبرّرات التمهيدية مدى وخامة الاغتراب الدّلالي الذي كان يتخبّط فيه الخطاب الأدبي العربيّ الحداثي أو حتّى المعاصر ، وقد كان النّقد الاصطلاحي يعمد بكلّ جلاء لأن يملأ تلك الهوّة بالمقدّرات التقريبية التي يبذلها في صياغة المقولات النقدية المعزّزة لصورة الخطاب الحداثي أو المعاصر .

وقد يعتبر من البديهي لدى المتشبّعين بالنّظريات الأدبية والفلسفية التي تعمل على تفسير الجذور التكوينية للنّظريات النقدية بأنّ ثمة فارقا بينا بين الخطاب الأدبي العربيّ وبين مكوّنات حركية الواقع العربيّ الاجتماعي والسياسي وربّما جاء الاصطلاح النقدي مستشعرا بعض ذلك التّفاوت في الرؤية والطّرح ، فقد ظلّ الحيّزان يتجاوران سلّتين متوازيين لا تماسّ بينهما إلا فيما يفرضه تغليب الواقع السياسي المصطنع اصطناعا لإرضاء هيمنة وجهة فكرية عقيدية معيّنة ، وبالمناسبة فقد أوجدت حساسية الموقف المحاول بسط التّوازن التبريري بين الماضي والحاضر أو الدّاكّة والواقع حاجة ماسّة في استقراء التّراث الأدبي العربيّ قراءة تفهّمية تحاول بسط المبرّرات الأصولية وهو ضرب من التّخليط الذي لا يخفى على الباحث إشكاله ، وقد وجد الناقد العربيّ نفسه مضطرا للخوض في مسائل تتجاوز واقعه العياني من مثل القراءة التّجديدية الحداثيّة للمقولات النقدية العربية التراثية التي توسّم فيها القارئ بصيصا من أمل الرؤية المستقبلية المستوعبة لحركية الإبداع الأدبي

والفنيّ معا ، ومن ثمة فقد طرحت كثير من مسائل الصّراع بين الأجيال الأدبية والصّراع بين العقل والحسّ أو بين التقليد والتّجديد ولكن هذه المرّة بصورة أكثر توازنا باعتبار أن كلّ الذين خاضوا في هذا السياق ظلّوا يبحثون عن ضروب من المهادنة بين القديم والمحدث أي سياقة المقاربة ، وآليات الوئام بين الذاكرة والوعي³⁷.

لقد انصبّت جهود نقدية ثقافية عربية كثيرة معتبرة خلال النصف الثاني من القرن العشرين على إثراء كثير من المنطلقات النقدية التأسيسية في حقل الدراسات النقدية العربية بالمناهج والنظريات وقد انصبّت في أغلبها على تفهّم بنية الخطاب الشعريّ عن طريق محاولة إعادة بعث المكوّنات النفسية والبيئية والفلسفية التي ظلت الشعريّة العربية تحتفظ بمميّزاتها الانفعالية التي تدلّ على مدى عراقة هذا الفنّ ، فنّ الشعر في الأعراف الثقافية والروحية للأمة العربية الإسلامية .

ولقد اصطدمت تلك التّعويلات النّظرية القوية الفورة والحماس بإشكال حضور المصطلح النقدي من حيث البحث عن مدى انسجامه مع المتطلّبات التحليلية والقرائية التي من مهامّها الحفاظ على الخصوصية الروحية التي هي ذاتها روح الإيقاع الانتظامي للحضارة منهجا وتنظيرا³⁸ ولا بدّ من الاعتراف الصّريح بأن لا مناص من تفادي إشكال الاصطدام بشروط النقلة والمغايرة

³⁷: خليل أبو جهجه ، الحداثة الشعريّة العربية بين الإبداع والتّنظير والتّقدّ دار الفكر اللبناني ، ص:28
³⁸: يرجع في هذا إلى المراجع التي درست المناهج النقدية الأدبية وهي كثيرة في النّشاط النقدي الحديث والمعاصر. ومنها : د. شكري محمد عياد : المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين عالم المعرفة ، الكويت سبتمبر 1993 ، ع177 وكذا : جان لوي كابانس النقد الأدبي والعلوم الإنسانيّة تر: فهد عكام دار الفكر دمشق 1982. وكذا كثير من الدّوريات النقدية الأدبية المتخصّصة في حقل الدّراسات الاصطلاحيّة ومنها مجلّة علامات مارس 2002.

باعتبارها محاولة للملاءمة بين الأصل والدّخيل حيث اصطدمت تلك الإجراءات عند وصولها إلى حيّز الفكر العربيّ بسؤال النقل بضرورة الإصابة والتّقدير المنهجي والمعرفي على كلّ أبعاده لتوظيف مصطلحات التّحديث أو العصرية والعثور لها على التسميات العربية الملائمة لمقدّراتها الثقافية والمنهجية وهما الشّرطان اللذان سيلازمان كلّ مبادرة لمداخلة الوظيفة النقدية الاصطلاحية وهو المناط الذي سنعبأ بتدليل قضاياه وأبعاده خلال بحث إشكالية المصطلح في النقد الأدبي العربيّ المعاصر.

لقد كان لكتاب **جيرار جينيت** "مدخل لجامع النّص" كثير من التّأثيرات الحاسمة التي اختطّت لها سبيلا بين المقترحات العصرية في سبيل إحقاق الأدبية العرية اللانقة بالقرن العشرين وما بعده ، والذي يهضم لبّ موضوع كتاب **جيرار جينيت** يلمس عن قرب مدى توجّه هذا التّأليف توجّها بالغا في إصابة الثقافات النقدية الإنسانيّة العالميّة الأخرى ، وبالرّغم من اتّضح جهل نقاد الغرب بالمعطيات الثقافية والنقدية لمجمل شعوب العالم إلا أنّهم كانوا يخطّون لفرض الهيمنة الإعلاميّة والثقافيّة الكفيلة بتدجين الكفاءات الحضاريّة لدى تلك الشعوب كاقّة ، وهنا يجدر بنا التّنبية إلى كون الحداثة هي الصّدوت الثقافيّ العالميّ الأوّل الذي استثمر لدى النقاد الغربيين على كونه استراتيجية عولميّة بكلّ معاني وأشراط العولمة التي تترسّخ اليوم وتقوى في ميادين الصناعة والاقتصاد والثقافة، حيث يتلخّص كلّ هذا الغرض في ما يقدر بالإسناد المغالط.³⁹

³⁹ ينظر ، جيرار جينيت ، مدخل لجامع النّص ، تر: عبد الرحمن أيّوب ، ط: 2 دار طوبقال الدّار البيضاء 1986 ، ص: 79/78/77.

والذي يدرس أسرار الكتاب المذكور لجيرار جينيت يستطيع أن يقف في خاتمته على تلك القائمة المطوّلة لمعجم المصطلحات النقدية التي تركت آثارها واضحة على مضامين الكتاب ، فالمتعارف عليه أنّ هذا النّمت من الكتابة النقدية سعت دائما إلى توظيف الثقافة النقدية الاصطلاحية وهو ما أوجد له الفاعلية البالغة بين المثقفين العرب وخاصة نقاد مدرسة الحداثة حيث عمل هذا الفكر الحداثي المتحرّز لاستقبال كلّ المقدّرات التفكيرية على تسويق البضاعة والترويج لها قبل الاهتمام بالثقافات النقدية المحلية بالرغم من أنّهم أي النقاد العرب المغلوبين على أمرهم كانوا يقدّرون الأبعاد الإبداعية التي كانت الذات العربية تصدر عنها ، وقد جاء الاعتراف على لسان جيرار جينيت في الشّهادة التالية (..وليكن وأقترح أن يكون مصطلح جامع النّسج آخر ما أقترحه من مصطلحات)⁴⁰.

وقد تلا هذا الاعتراف سلسلة من التّوليدات الاصطلاحية أهمّها: النّعالي النّصيّ ، أو النّظير النّصيّ ، وهي صياغة اصطلاحية توصيفية كفيّلة بأن تغالط متّبعها أو مقلّدها ، على اعتبار كونها ما تزال رهن التّجريب والمعاناة ، وقد كان كلّ هذا يربك النّقاد العرب ويضعهم المواقف المحرجة ، من حيث دأبوا على الولاء الأعمى للثقافة الغربية لا يراعون بشيء إن كان ذلك المستورد يخدم التّغريب والإغراب وجرّ الفكر العربيّ إلى الطّلاس ، وربّما كانت نتيجة هذا الذي نذكره هنا وخيمة على الأجيال الثقافية العربية الطّرية ، حيث وجدت في استقبالها ثقافة نقدية أدبية لا تستبين غاية البيان ولا تتّضح

⁴⁰جيرار جينيت ، مدخل لجامع النّصّ ، تر: عبد الرحمن أيّوب ، ط:2 دار طوبقال الدّار البيضاء 1986 ، ص:91

غاية الوضوح فحدث أثر ذلك كله جملة من الإنقطاعات والخلخلات ربّما يصعب على الدّارس العربيّ اليوم أن يجد سيلا إلى تفهّم ما تتخبّط فيه هذه الأجيال من المغالق والأزمات والإشكالات التي يعتبر الإشكال في الاصطلاح النقدي أحد أهمّ أبرز وجوها بامتياز.

والمبدع الذي يرهّن نفسه لمجاذبة الأبعاد التّحديثية يجد نفسه محاطا بكثير من التّداعيات التي تشكّل لديه تحدّيا بالغ المعطيات ، فالأديب العربيّ مثل غيره من الأدباء الإنسانيين يعرف إن هو لامس حدود المغامرة وداخل أجواء المغامرة الساعية إلى تحقيق فلسفة التّجديد والتّحديث ، تصدمه كثير من المتغيرات التي تطرح إشكال التّحوّل بكلّ عنف وتحدّ ، ومن ذلك درجة قياس الثابت والمتحوّل في الوظيفة اللّغوية ، لذلك فقد شكّل هاجس التّحديث اللّغوي لدى العربيّ كثيرا من الرهانات وقد وجد نفسه محكوما بكثير من أخلاقيات الموضوع النقدي هذا فاللغة الأدبية في حيّز الاعتبار الإبداعية العربية متّصلة بكثير من الوظائف الأخلاقية والدينية والقومية لا سبيل إلى إلغاء ضغوطاتها التي يرفعها المجتمع العربيّ الإسلامي فوق كلّ الاعتبار الفكرية الأخرى ، وفي هذا المضمّار فإننا نرى من اللازم علينا أن نعرّج على ذكر الحساسيات والتّحدّيات التي طرحها التّفكير النقدي الأدونيّسي فقد كان لمصطلح التّجاوز⁴¹ الذي طرحه أثره في الثقافة النقدية العربية.

ولم يكن في وسع أدونيس بحسب النّهج الذي تبناه والغاية التي ارتسمها أن يتحقّظ في طلب مصطلح نظرية التّجاوز فقد استغلّ النّشاط الدّلالي والفكري

⁴¹ ينظر ، أدونيس علي أحمد سعيد ، مقدّمة للشّعر العربيّ ، ط: دار العودة بيروت 1979 ص: 109/108/107/44/43/42.

الذي أثمر مدلول الرؤيا التي تعني المتصور الفكري ليبادر إلى طرح مشروع المغايرة النقدية المرفقة بكثير من المجازفات في إنتاج الخطاب أو النص الحداثي المشاكس.

ولكي يستوثق أدونيس من جدوى هذا لنتجّه النقدي المقوّى بالإجراء الاصطلاحي المغامر فقد تبنى منذ البداية منهاجا تنظيريا مفتوحا على الاحتمال فلا يقين إلا ما يفرزه واقع الخطاب ، ولقد قامت المدرسة النقدية اللبنانية بكل ما تتحلى به من الامتيازات الليبرالية بتسويق كلّ النظريات النقدية المندرجة في سياق هذا التوجّه المحفوف بكثير من الاعتراضات والمزالق والمخاوف ، وربما نفهم من أدونيس أنّه كان ينطلق من تلاش كلي في الموروث الأدبي العربي التراثي وكيف لا يكون كذلك وقد بات يعلم علم اليقين بأنّ المدرسة الأدبية العربية المحافظة تتحصّن بكلّ المقوّمات التراثية صداً منها لكلّ دخیل لا يجد ما يتقوى به إزاء العاطفة القومية التي تسكن كلّ ذات عربية .

3-1- القيمة التوثيقية للمصطلح النقدي :

لا يستطيع باحث تعمّق أوليات النزوع الاصطلاحي في النقد العربيّ المعاصر أن ينكر أو يتجاهل تلك الغاية الخفية الواضحة التي تبناها النقد العربيّ الحداثي في أوليات نزوعه التعيدي للظواهر الأدبية والظواهر النقدية معا فقد ، سعت كثير من الجهود المبادرة إلى توثيق الظواهر الأدبية والنقدية معا لدى أوّل احتفال معرفيّ بها وقد اجتمعت تلك الملاحظات الأولية آنذاك على تسمية الاصطلاحات النقدية العاملة على بلورة المساعي الإبداعية التي

كادت تنصبّ على تحرير الكتابة الشعريّة أي نقل القصيدة من الشعر العمودي إلى شعر التفعيلة ، وذلك ما أنتج زخما معرفيا اصطلاحيا تجلّى في كثير من التسميات أهمها الصورة الشعريّة ، موسيقى الشعر والإيقاع ، والسّطر الشعري والموسيقى الداخلية والموسيقى الخارجية ، والتشكيل ، والجملة الشعريّة والنّفس الشعري والدّقة الشعورية⁴² .

ولم يكن من الموضوعي والمنطقي أن يمر هذا الاحتفال بالكتابة الشعريّة الحداثيّة دون أن يترك بصمات واضحة على الحقل الدّلالي النقدي المتّصل بابتداع الاصطلاح النقدي الذي سعى في جميع مراحلها من أجل مواكبة المعطيات الأدبية والنقدية الجديدة ، لذلك فقد ألفينا كثيرا من الباحثين لا يجاوزون هذا المناط من ثقافة الأدب العربيّ المعاصر دون أن يفرّدوا لذلك الاهتمام جملة من المواضيع البحثيّة المتعلّقة بسبل الكشف عن هذا الاجتهاد الجديد ، والمسعى الفريد بل لعله لم يغال "عزّ الدين إسماعيل" حين أسمى المصطلح النقديّ المفتاح الدّهبي الصّغير حين تعرّض لموضوع الاصطلاح في ثقافة التجربة الشعريّة العربيّة الجديدة حيث أفضى بهم هذا الاهتمام إلى توليد معجميّة خاصّة هي المصطلح الشعريّ⁴³ .

وربّما كان عزّ الدين إسماعيل يتحرّى إصابة معنى آخر هو غير الذي يتناوله بحث المصطلح النقدي الحداثي ، فقد ذهب ضمنا إلى أن يعني بذلك الكلمات اللغوية المحورية التي اعتمدتها لغة الشعر الحرّ الذي يسمّى كذلك شعر التفعيلة ، فبالرّغم من عنونة الباحث لهذا الموضوع بصيغة : المصطلح

⁴²: ينظر ، دجّزّ الدين إسماعيل ، الشعر العربيّ المعاصر ... ، ص: 43 / 142

⁴³: ينظر ، دجّزّ الدين إسماعيل ، الشعر العربيّ المعاصر ، ص: 173

الجديد وظاهرة الغموض إلا أنّه كان يعني به المعجم الفنّي الذي هو أساس التجربة الشعريّة الطّرية التي برزت حديثاً إلى الوجود لثقافي العربيّ المعاصر.

وأمام زخم توالي حلول ثقافة الدخيل اللّغويّ بعد أن ترتّب على جملة من الصّدّات والعلاقات الثقافية الإنسانيّة المسيطرة على الساحة الأدبيّة وخاصّة منها الاشتراك في الثقافة النقدية الحديثة والمعاصرة فيما بين آداب الأمم المختلفة المشارب الحضارية وقد أتى ذلك التّوجّه استكمالاً للتّواصل المعرفي العربيّ الشّبيه بالعولميّ استيعاباً للمفاهيم والمصطلحات الجارية بها التّعامل والتّفاهم في الثقافة الأدبيّة العالميّة المعاصرة من منطلق المتطلبات الانسانيّة والحاجة الملحة إلى تفهّم أبعادها النظرية والتّطبيقيّة مع استيعاب التسمية الجديدة النابعة من طبيعة المسمى الجديد الحالّ طارئاً على الثقافة النقدية العربيّة المعاصرة والحديثة⁴⁴ ، وقد تساندت جلّ هذه الجهود التّكوينية الحاملة على عاتقها مسؤوليّة بلورة الرؤية الفلسفيّة والأدبيّة العربيّة الحديثة حتّى لاءم ذلك السعي للكشف المفهومي المتولّد (الذي يقيم للمعرفة التّوعية سياجها المنطقي بحيث يغدو الجهاز المصطلحي لكلّ ضرب من العلوم صورة مطابقة لبنية قياساته ...) ⁴⁵.

ووفقاً لهذا التّصوّر يرتدّ الإجراء الاصطلاحي في تصوّرنا بمثابة اللّغة الموحّدة التي يمكن للمعارف الإنسانيّة أن تتوحد ضمن سيرورتها التّفكيرية ،

⁴⁴: يحتاج النّصّ الإبداعي الحداثي إلى كثير من فعاليات الإجراء الاصطلاحي الذي يقوى على انتظام

الأطر التّفكيرية العربيّة الحديثة ، ينظر: مجلة الفكر تونس ، جانفي 1970 ، ص: 56

⁴⁵: د. عبد السّلام المسدي المصطلح النقدي ، ط 1 ، مؤسّسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتّوزيع

تونس 1994، ص: 10

وكيف لا يكون ذلك مشروعاً وافر المتقبّل وقد غدت الأمم أكثر اقتراباً بعضها من بعض بفضل الثورات الإعلامية والمعرفية الصّناعية التي باتت تعزّز بؤادر التقارب العرفي فيما بينها.

وقد أتى كلّ هذا إحساساً من الدّقاد والمفكّرين العرب بفداحة النقص والدّقْهَقَر ، وفي غياب المواكبة المجمعية اللغوية الموحدة والمقنعة ، عول النقاد على جهودهم الفردية وطفق كل واحد يجتهد في النقل والترجمة والتسمية وعلى فهمه (الذي قد يصيب وقد لا يصيب) للدال الأصلي في لغته الفرنسية أو الانجليزية أو غيرها وعلى مدى مهارته في نحت اللفظ البديل واهتدائه إلى المقابل الكفيل.

وبلغ التعدد بالنظريات والتنظيرات النقدية والقرائية حداً صارت معه "المدرسة" "مدارس" بعدد أعلامها وأقطابها تنتشر وفق القناعات النّظرية التي تتماهى إليها الفكرة الأدبية التي انبثق عنها توليد المصطلح أوّل مرّة ، ومع أنّنا مدركون غاية الإدراك لاتّصال كثير من أسباب ابتداع التّسمية الاصطلاحيّة بما طُفرت عنه أوّل مرّة في شكل فكرة بسيطة أوّلية ساذجة تبعا للإرهاصات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تمنح التسمية الاصطلاحية أبعادها الخصوصية فإنّنا نقدر أبعاد الخطورة والمغامرة التي ينبني عليها استنبات المصطلح النقدي في بيئة هي أغرب عن أن تتلاءم مع خصوصية تربته الثقافية فالتّعارض بين مختلف الحضارات الأدبية فيما بين الأمم ما يزال يعمل عمله سواء أكان ذلك في المدى القريب أم البعيد ، ولقد ابنتقت جلّ المدارس الأدبية والنقدية الغربية عما يشبه التّجمّعات الثقافية التي كانت تتبّنى بيانات سياسية معيّنة منها "جماعة براج" أو "فريق براق" أو

"مدرسة الشكلايين الروس" حيث كانت كلّ واحدة من هذه التجمّعات تتبنّى وجهة فلسفية وجمالية مخالفة للتجمّعات الأخرى، غير أنّ الذي يفتش في تراث الحضارات الأدبية الإنسانية لا يكاد يخفى عليه مدى تلاؤم المفاهيم والأفكار خاصّة حينما يتعلّق الأمر بالمذاهب الفنية والفكرية التي تشكّل إجماعاً إنسانياً لا سبيل لتجاوز حقائقه الانفعالية التي تكاد تتوحد حولها معظم اللغات الإنسانية، واستيفاء لسياق هذا المفهوم الكوني العالمي الإنسانيّ فقد لاحظنا لدى مطالعة الآثار العربية النقدية التراثية خاصّة منها تلك التي امتازت بالمعرفة الفنية والجمالية الرائدة مثلما هي لدى عبد القاهر الجرجاني أنّها في كثير من غاياتها التفهّمية الاصطلاحية تشاكل علم الاصطلاح النقدي الحديث، فقد تضايق عبد القاهر الجرجاني بتحامي النقاد لمفهوم للشعر رآه ساذجا غفلا عن كلّ استيعاب لحقيقة فنّ الشعر فانبرى يصعد الشعريّة من الشعر البارد إلى مفهوم الشعر الشاعري أي ذلك الشعر الذي يسمو على الغايات الاصطلاحية التقليدية⁴⁶ وجملة الأمر لديه أنّ (... صور المعاني لا تتغير بنقلها من لفظ إلى لفظ حتّى يكون هناك اتّساع ومجاز...) ⁴⁷، وأحرى بالصيغة الإصطلاحية إن هي ضاق عنها مجالها الدلالي العلمي الموضوعي بمعنى العلمية الأدبية المطاوعة لحقيقة تنامي الأفكار والدلالات وتأسقها.

⁴⁶: ينظر، دلائل الإعجاز، ص: 236

⁴⁷: المصدر نفسه، ص: 204

4-1- مصطلح العصرنة :

يبدو بديهياً أنّ الوعي الحضاري الذي تشبّع به الإنسان العربيّ أثرا مباشرا في جملة التّنبیّات والتّحقّرات التي صارت تدغدغ أحاسيسه ومشاعره وسط حضارة ملأ فيها التّكامل الإعلامي واستفاضة التّوصيلية كلّ أرجاء المعمورة ، حيث أدّى هذا الوعي الحضاري إلى زيادة التقريب فيما بين بني البشرية أو الإنسانيّة ، ولذلك فإنّ الحسّ العربيّ بالرّغم ممّا كان يتخبّط فيه من الأزمات النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية فقد ظلّ يرتّب آليات الوعي الإنساني الجديدة ، فلم يعد بمعزل عن هواجس الإنسان الآخر ، بل صار يشاركه في كثير من المؤتمرات والملتقيات والنشاطات الإعلامية ، ولا يخفى على المتفكّر ما كان في استطاعة هذه المعطيات الإعلامية الطّارئة من قوة التّأثير ، وسعة التّنبیه التي عملت جميعها على إيقاظ الحسّ المعرفي والإبداعي لدى الإنسان العربيّ ، من حيث صار في إمكانه التّواصل الروحي والعقلي والسياسي بكلّ البيئات الإنسانيّة على وجه المعمورة ، وقد أهّل هذا الدّوق والطّموح الأديب العربيّ لأنّ يطمح عالیا إلى بلوغ المراتب الفكرية والإبداعية ذاتها التي يتمتّع بها الأديب الآخر ، ولدى سعي الأديب العربيّ لامتلاك الإمكانات الجديدة وجد نفسه محاطا بكثير من الدّقائص التي تعترض سبيل تحوّل له في الوجهة الجديدة ، لذلك فقد ساد بين النّقاد العرب نزوع عولمي أكثر ما تجلّت بوادره في استدعاء المقولات والشّهادات الإبداعية والفكرية والنقدية لكتاب عالميين وطفق كلّ متعاط لعلم النقد الحداثي المعوّل على

الرّصيد الاصطلاحي يغرف من التراث العالمي القديم والحديث والمعاصر لا يمنعه مانع في ادّعاء كلّ فكرة يراها حكمتها الضّالة⁴⁸.

ولا يخفى على الدارس مدى ارتباط الصّيغة الاصطلاحية بنشاط الدّلالة الأدبية التي أوجدته فهي من هذا الاعتبار سوف تظلّ تفعلّ تلك الطّاقة الدّلالية الكامنة خلاف المصطلح العلمي التقني الذي يبقى الحفاظ على سكونه وجموده ومحدوديته الدّلالية سمة من سمات نجاحه العلميّ لذلك فإنّ هذا التفاعل الدّلالي السافر عن القيم الإبداعية الراسخة في كمونة المصطلح قد يظهر في شكل نشاط إنشائي ، فتكون لتلك الإنشائية المتجلية في شكل انفعال لغوي شبيه بالانفعال اللغوي الذي يتلبّسه ابنثاق القصيدة الشّعريّة ذاتها (إحدى ترجمات Poétique) على إنشائية جاكبسون ، وإنشائية تودوروف وباختين ... الخ ، لعلّ لا حاجة لنا في أن نقرّ بأنّ مصداقية الناقد تعتبر المسوّغ الإعلامي الأوّل الذي يسطّر قوّة هيمنة القيمة النقدية التي سيتمّتع بها الإجراء التّطبيقي لاحقا ، وتوزع البنيوية (إحدى ترجمات Structuralisme) على بنيوية بارط وبنيوية جينات وبنيوية غولدمان... ومن الواضح جدّا أنّ الأعلام الوارد ذكرها في السياق التّاريخي لمساعي ترسيخ علم الاصطلاح النقدي يبدو قائما معتمدا على ثلّة من العلماء الواردين من جهة الثقافة الترجّمية هم : ياكبسون ، وتودوروف وباختين ، حيث ظلّت هذه الأسماء تشكّل المبدأ والغاية التي لا فكاك عنها ، وقد نستطيع القول أنّ ثمة جملة من النقاد الغربيين ظلّوا يحافظون على نفس الصيت المعرفي الذي ظلّ يتمّتع به المستشرقون إلى فترة غير قصيرة في

⁴⁸: يعمد د. عز الدين إسماعيل إلى توظيف منطلقات حداثة الشّعر الغربيّ باعتبارها مقوّمات إنسانية عالمية ليست تحدّها حدود ، ينظر ، الشّعر العربيّ المعاصر قضاياها وظواهره المعنوية ، ص: 11.

الثقافة العربية الحديثة ، فلقد وجد رواد النقد العربي الحديث ضربا من الثقة و الاستئناس بأسماء بعينها لا تكاد تتخلف عن معظم المناسبات الثقافية الحاسمة ، حيث صادف وأن لقي هؤلاء النقاد موجة من القناعات في فلسفة التحوّل الفني والجمالي حملها رجيل من المبدعين شعراء ونثارا عربا هم الذين ظلوا يحافظون على مصداقية التواجد الغربي في الثقافة النقدية العربية المعاصرة والحديثة ، تجاوبا مع الميولات العولمية والانسانية التي صارت تشكّل التوجّه الغالب الحاسم في القناعات الثقافية الوبية المتطورة التي تحاول أن تثبت حسن نيتها في مداخله المشاريع الثقافية الإنسانية ربعا لتعاطف المنظّمات العالمية معها وكسبا لودّها السياسي والفكري معا .

ومع كلّ الذي تداولناه في موضوع نظرية انبثاق الفكرة الاصطلاحية وتوزين الصيغة الاصطلاحية فإنّ الذّروع الاصطلاحي يبدو في إحدى تجلّياته النقدية ضربا من محاولة لجم التفاعل الأدبي للفكرة المصطلح عليها ، حيث يرسّخ الاصطلاح ضربا واحدا من تلك الصور الدلالية التي تتماهى إليها الفكرة عندما كانت في حيّز التفكير الأدبي الإبداعي ، ثمّ ما تنفكّ تلك الصيغة الاصطلاحية شبه المجمّدة متّصلة في تعالق عنقودي بكلّ ما تفضي إليه من الوظائف والغايات الفكرية والمعنوية خاصّة أثناء تمثيل الإجراءات التّطبيقية الواقعة في نطاق دلالة المصطلح النقدي ، ولو تدبّرنا سياق هذا التّداول لموضوع القيمة الاصطلاحية ومدى اتّصالها بالوازعين الإنشائي من جهة والوازع العلمي من جهة أخرى لألفينا انحراف النقاد بالدلالة الأدبية لمفهوم الصّورة منتقلا من غاياته الوظيفية التي غالبا ما تتكاثر في الخطاب الشّعري لتستقرّ في محاولة لتقنين مدلولاتها الاصطلاحية ضمن تصوّر تقني انبرى

النقد يقولون فيه ويعيدون ، لأنّ ثمة اضطرابا وتفاوتا في تفهّم الاعتبارات النقدية المتصلة بمصطلح الصورة فثمة الصورة الشعرية والصورة الأدبية والصورة التشكيلية ، وهي في مجملها متوزّعة بين الاعتبارين ، الاعتبار المادي والاعتبار المعنوي ، لأنّ الناس دأبوا على استعمال هذه التسمية يقصّون بها المرئيات لا المتصورات في الدّهن والخيال ، حيث يكون الإشكال واردا من جهة بلوغ العقل المتبيّن أو المتفهم لكيفيات انتقال الدلالة من حيّزها المادي المرئي إلى حيّزها الفكري التخيلي لأنّ الأمر مترتب فهمه على جملة الفوائد المجتناة من التعامل مع فكرة الصّورة ، لأنّ ثمة رؤية ورؤيا ، والواصل بينهما مجرد التّخمين والاعتبار لأنّ الصورة في اعتقاد بعض النقاد ليست سوى (... منهج فوق المنطق لبيان حقائق الأشياء...) ⁴⁹ .

وأوقعت النقول الفردية التي واجه بها النقاد العرب هجوم المدارس النقدية الحديثة وترسانتها الاصطلاحية في إخلالات جمة كان من نتائجها فقدان المعرفة المنقولة لنجاعتها الإجرائية وهي تدخل فضاء اللغة العربية وتعذر النفع على جمهور التلقي العربي.

والذي رشح المساعي التعريبية لمزيد التشرذم هو اختلافها باختلاف اللغات التي يأخذ منها النقاد (فرنسية، انجليزية...) وباختلاف مواقعهم من الحداثة والقداثة ، ومواقفهم اللغوية والفكرية ومستوياتهم المعرفية، فالأخذ من الفرنسية يستخدم الرومنطيقية والرومانتية والرومنيزم ، والأخذ من الإنجليزية يؤثر "الرومنسية"، وقد تجري على أديم النص الواحد هذه الصيغ جميعها ، فضلا عن تعايشها تحت سقف الجامعة الواحدة في البلد الواحد.

⁴⁹: د. مصطفى ناصف ، الصّورة الأدبية دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، ص: 8

وأفضى التشتت المصطلحي بالناقد العربي ، وهو يخشى على نصه سوء الفهم، إلى تذييله بجدول في المصطلحات التي استخدمها⁵⁰ ، يضم أصولها الأجنبية ونقولها العربية ، وذلك لعلمه أن غيره قد يذهب مذاهب تعريبية أخرى، وأن المسألة خلافية بقدر ما هي اجتهادية . ولا تكاد تخلو رسالة أو أطروحة جامعية دائرة على نظرية الأدب ونقد الشعر ودراسة النص من فهرس، بين فهارسها، بالمصطلحات المنقولة، حتى يتسنى للمشرف على رسالة البحث الأدبي العلمي⁵¹ واللجنة اختبار المترشح ومساءلته في نقله أولاً وحتى لا تتعسر القراءة على القارئ بعد نشر العمل ثانياً ، وكثيراً ما يحرص الناقد أو الدارس على "تفسير" النسخة العربية بإحضار الأصل الفرنسي أو الانجليزي ووضعها قبالتها بين قوسين كي يشير إلى كونه يعرض ترجمة شخصية أو يتبنى واحدة من الترجمات المتداولة في غياب المرجع الموحد كأن تراه يشفع للشعرية بـ Poétique والتماثل بـ équivalence والانزياح بـ écart وقصيدة النثر بـ poème en prose... الخ وهي ظاهرة لا يكاد يخلو منها نص نقدي عربي وقد ينوء الدارس ، أمام كثرة الترجمات، بينها جميعاً وكأنه يريح نفسه من عناء التورط في ترجمة واحدة، ويوفر لها ضماناً التلقي المطلوب . وتلقى Poétique في الساحة النقدية الشعرية العربية عشر ترجمات على الأقل هي : الشعرية والإنشائية والشاعرية وعلم الأدب والفن الإبداعي وفن النظم وفن الشعر ونظرية الشعر وبوطيقا وبويتيك⁵¹ . كما تلقى écart

⁵⁰: لقد أسهمت الثقافة النقدية العربية الترجمة في إثراء حقل النقد الاصطلاحي بالقدر الذي ظلّ مسيطراً على كثير من النظريات التطبيقية ، خاصة فيما يتعلق بالنّصّ ، والشعرية والإيقاع ، والصّورة الأدبية ، أو الصّورة الشعريّة.

⁵¹: حسن ناظم ، مفاهيم الشعريّة ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء المغرب ، ص: 18

المصير التعريبي نفسه فقد فتن النقد الأدبي والدرس الجامعي وهما يستقبلان هذا المصطلح بـ "الانزياح" مقابلاً له ، ثم كان "الانحراف" و"التجاوز" و"الخطأ" و"الكسر" و"الانتهاك" و"الشذوذ" و"الجنون"⁵² . ثم بدا كما لو استقر على "العدول" الذي عثر عليه عند القدماء كابن حزم، وحازم القرطاجني ، بل وجدنا الناقد الواحد يستخدم عدداً من هذه التسميات وكأنه يسعى دون طائل إلى محاصرة المفهوم الكامن في الأصل⁵³ ، ويلقى مصطلح *intertextualité* اختلافاً مشابهاً في التسمية العربية فمن تناص وتناسية⁵⁴ إلى بينصية⁵⁵ وبين نص ونصية. ويثير المصطلح *signe* بدوره أكثر من خلاف في نقله حيث عثرنا له على أربع ترجمات متداولة هي : دليل، وعلامة، وإشارة ، وسمعة⁵⁶ ولا يستقر نقله الـ *métalangage* التي منها *la fonction métalinguistique* وهي إحدى وظائف الإبلاغ الست التي حددها جاكبسون ، فقد استخدموا مقابل ذلك "اللغة الواصفة" و"اللغة الشارحة" و"الميتالغة" و"الميتالسان" و"الماورالسان"...الخ. ولئن كان بعض هذه المصطلحات شاملاً لعموم نقد المصنوعات الكلامية فإنه جرى على ألسنة نقاد الشعر واللغة الشعرية.

ويمتد الخلاف إلى الدوال المذهبية الأدبية والنقدية فيشمل أسماء المدارس والمناهج وفي هذا الإطار وجدنا لـ *classicisme* و *romantisme* أكثر من صيغة تسموية، وجدنا لـ *structuralisme* ترجمتين متعايشتين هما الهيكلية

⁵² ينظر ، تامر سلوم ، الانزياح الدلالي الشعري ، مجلة علامات مارس 1996 ، ص: 90

⁵³ يستعمل بعض النقاد مصطلحات الانحراف والعدول والتباعد ، ينظر المرجع المذكور ، ص: 108

⁵⁴ ينظر ، التناسية ، محمد خير البقاعي ، مجلة علامات ، مارس 1996 ، ص: 129

⁵⁵ ينظر ، د. عبد العزيز حمودة المراسم المحدث ، ص: 361

⁵⁶ ينظر ، مجلة عالم الفكر ، مارس 1996 ، مقال السيميولوجيا والأدب ، ص: 207

والبنوية وإن رجحت كفة الثانية مع الزمن⁵⁷ بعد رجحان كفة الأولى إبان دخول المصطلح⁵⁸ فضلا على ثالثة ورابعة قليلتي التداول هما بنائية وهيكلانية ولا توجد ترجمة واحدة في المعجم النقدي الأدبي، والشعري منه خاصة، لأي تسمية مذهبية أو منهجية غريبة دخلت بمفردها فضاء الثقافة العربية.

وتصحب هذه الفوضى الترجمية لمفردات الحقل النقدي الشعري إخلالات عديدة من شأنها أن تزيد الوضع سوءا ، مردها إلى قصور في تدقيق معنى المفردة المنقولة وإيجاد المقابل العربي أو تعذر إيجاده على الاجتهاد الفردي، بناء على كون المعجم مسألة حضارية والمصطلح نتاج بيئة ثقافية وسياق تاريخي لا يمكن عزله عنهما إلا تعسفا واغتصابا ولم تغب مآزق المشهد النقدي العربي في النصف الثاني من القرن العشرين عن عديد النقاد والدارسين سواء داخل الفضاءات الأكاديمية والجامعية أو خارجها وقد أشار هؤلاء إلى سلبيتين طبعتا عموم استقبال العرب للحدث النقدي :

- أولها التعامل الشكلي ، وبالتالي السطحي ، مع المناهج الوافدة، جراء انبهار في النظر وتعجل في النقل وقصور في الاستيعاب بما أدى أحيانا كثيرة إلى آلية في التطبيق وببغاوية في علاقة بالمقولات.

ولئن تفاوتت تقصير النقاد هاهنا بتفاوت اجتهادهم وعلمهم فإنه نقل النص الشعري الذي لم يضق بلبوس المناهج النقدية الغربية (من البنيوية إلى

⁵⁷: ينظر ، تامر الغزّي ، القراءة الأسلوبية بين الإنشائية والهيكلية ، مجلة علامات سبتمبر 1999 ، ص: 335

⁵⁸: عبد السلام المسدي ، قضية البنيوية ، مراجعة : خالد وغلاني ، مجلة علامات جويلية 1996 ، ص: 240

3: ينظر ، كتاب الطليعة التونسية ، مجلة ثقافة ، ع: 8 صيف 1972

التفكير على الأقل!) وهي تطبق عليه تطبيقا وتطبق على روحه إطباقا⁵⁹ بعد فوات أوانها عند صناعتها وتخليهم عنها إلى غيرها أحيانا ، فيستغلق ويستحيل طلسمًا أو يفتقر حتى لا يعدو البنية الشكلية وشبكة الدوال أو يقول ما لا يقول سواء بمستوى معانيه الأول أو معانيه الثانوي.

- والثانية النقل غير الدقيق والموحد لمفردات الجهاز المصطلحي النقدي، بناء على أن "كل وجهة نظر نقدية في دراسة الأدب لا تتوفر على جهاز مفاهيم دقيق ودال ستكون فرضياتها ضعيفة وينعكس ذلك أيضا على مستوى النتائج"⁶⁰ ومن هنا وقع الانتباه إلى الإخلالات العالقة بذلك النقل، والتي شملت مستوى أول هو الدال وتمثلت في "إعطاء مقابلات عديدة ، مختلفة غالبا، لمفهوم غربي واحد... مما يفقد المصطلح قيمته الإجرائية ويؤثر سلبا على دوره التواصلية الهام في المعارف وتطويرها (14) وشملت مستوى ثانيا هو المدلول "بإعطاء مفاهيم عديدة ومختلفة لنفس الدال الواحد... وذلك يفقد المصطلح حمولته الدلالية الموضوعية المرتبطة بمرجعية معرفية محددة واحدة..."⁶¹.

- أما ثالثة الإخلالات فحاصلة على مستوى الدال والمدلول معا، ويعد أخطر مظاهر اضطراب المصطلح النقدي لكونه يجمع بين مساوئ

⁵⁹: حميد لحميداني ، دراسة الأدب في الجامعة ، مجلة علامات سبتمبر 2001 ، ص:196
⁶⁰: عبد العالي بوطيب ، إشكالية المصطلح في النقد الروائي العربي ، قضايا المصطلح في الأدب والعلوم الإنسانية (أعمال ندوة مكناس المغرب 2000 ص:173
⁶¹: عبد العالي بوطيب ، إشكالية المصطلح في النقد الروائي العربي ، قضايا المصطلح في الأدب والعلوم الإنسانية (أعمال ندوة مكناس المغرب 2000 ، ص:174

الاضطرابين السابقين.. بإعطائه دوال ومدايل مختلفة عما هو سائد
ومعروف عن هذه المصطلحات في مرجعياتها الغربية الأصلية" ⁶².

إنّ خضوع المصطلح لذات طبيعة التّصوّر الأدبي لحظة ابتداء الخطاب
الإمتاعي أن شاعر الشاعر والنثر الفني الجمالي هو الذي ما يزال يشحن
المصطلح النقدي بتلك الانفلاتات الدّلالية التي ستظلّ ترفض الدّبوتق ضمن
المفاهيم العلمية الجاقّة.

ويقف بعض هؤلاء النّقد المقرّين ضمّنيا بمعايشة هذه الظّاهرة وإقرارها
مثل العاجزين أمام ظاهرة النّقول أو التحويلات العربية ضمن الثقافة الأدبية
والنقدية للترجمتين المختلفتين للمصطلح النقدي الغربي الواحد، فالناقد العربيّ
سوف يبقى معزولا عن كثير من الزّخم الدّلالي المنتج للتّصور العلمي الغربيّ
حيث نقرّ ضمّنيا بتوافر أسباب معلنة أو خفية هي التي سوف تبقى المفعّل
للثقافة الاصطلاحية، فيقنع الناقد بالمصطلح عند الحاجة مضطرا بعرض ما
أمكنه من الخيارات المتداولة كأن يقول في موضوع السيمياء "السيمائية أو
السيمائية أو السيميولوجيا أو السيميوطيقا" ⁶³ أو علم الإشارة أو علم العلامات
أو علم الأدلة... ترجمات وتعريبات تطول لعلم واحد... ⁶⁴ ويشير إلى كون
هذه ظاهرة عامة في النقد العربي الحديث، في كل ما يأخذ عن الآخر من

⁶²: المرجع نفسه، ص: 174.

⁶³: لقد توسّع النّقاد العرب خاصّة الحداثيين منهم في مداخله مفهوم السيمائية من مثل الغدّامي وعبد
العزیز حمّودة وعبد الملك مرتاض فكانت معظم ملاحظاتهم تنساق وراء التّدقيق في الأصل اللّغوي
لمصطلح السيمياء مقاربين ملهو مستقرّ في الأعراف اللّسانية العربية ممّا سامّ هذا العلم السيمائية
السيمائية السميولوجية علم السّمة، وقد يكون لتقارب الألسنة اللّغوية الإنسانيّة من اللّغة الساميّة
صلة مباشرة بتحمي اللّغات للتّشاكل في تسمية هذا الفنّ من علم الدّلالة اللّغوية.

⁶⁴: بسام قطّوس، سيمائية العنوان عمّان الأردن، ص: 2002

مصطلحات" أو كان يشفع مصطلح "اللغة الشارحة" بالأصل métalangage ويعزز ذلك بخيار ثالث هو "الميتالغة"⁶⁵. وينطلق بعضهم من اختلاف الواقع العربي عن واقع العالم الغربي الذي أفرز الحداثة ليلخص إلى أن "نقل الحداثة الغربية المعرفية الجديدة، والمصطلح النقدي الذي تولد عنها ، إلى واقعنا العربي ضرب من العبث في الدرجة الأولى"⁶⁶ فلا غرو أن "يجيء هذا المصطلح غريبا ويبقى غريبا ويذهب غريبا"⁶⁷.

والحق أن أزمة المصطلح لا تخص أبناء الثقافة العربية في ما يستوردونه من إنتاج القريحة الغربية بل تشمل حتى أبناء هذه القريحة الذين ترتفع أصوات بعضهم منادية بتوحيد المصطلح النقدي (مثال الجدل الذي أثاره مصطلحا sémiologie و sémiotique) لكن حجم المشكل عندهم محدود مقارنة بحجمه عند من أخذ عنهم، وأمر التسمية يظل متاحا لمنتجي أشياء العالم عصيا على مستهلكيها ، و"الذي ينشئ هو الذي يسمى ويسم المسمى بميسمه"⁶⁸ ، وتظل القضية قضية حضارية أولا وآخرا . ولعل قول القائل بأن "الأزمة ليست أزمة مصطلح بل أزمة واقعين ثقافيين وحضارتين مختلفتين"⁶⁹ وأزمة فكر بالدرجة الأولى⁷⁰ وأن "ليس هناك خوف وإنما إحساس بأزمة حضارية وانجراف في اتجاه معين..." أن يكون قد لامس هذه الحقيقة ولو هو لم يتعمقها ويقف عند أبعادها الكلية.

⁶⁵: عبد العزيز حمّودة، المرايا المحدّبة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

اتلّكوت ، 1998 ، ص: 354

⁶⁶: نفسه ، ص: 38/37

⁶⁷: نفسه ، ص: 37

⁶⁸: عبّاس الصوري ، بين التّعريب والتّوحيد قضايا المصطلح في الأدب والعلوم الإنسانية ، ص: 99

⁶⁹: المرايا المحدّبة ، ص: 33

⁷⁰: المرايا المحدّبة ، ص: 34

فما من شك عندنا في كون الحل الجذري يكمن في تصحيح الميزان الحضاري واحتلال موقع المنتج والفاعل وهو ما يعني مصداقية الانبعاث وامتلاك شجاعة الانطباع حيث يقوى الناقد العربيّ المتشبع بالقيم الحضارية العربية الحديثة أن يتجاوز عقدة التفكير من خارج معطياته الواقعية البيئية منها والاجتماعية ، وبالتالي ترك موقع المستهلك والتابع والعالمة . وحينئذ فحسب يتسنى لأهل العربية وهم يصنعون أشياءهم وينجبونها أن يطلقوا عليها الأسماء التي يريدونها كما سبق أن صنعوا وسموا وأخذ عنهم.

ويحتاج تحقيق هذه المنزلة إلى استفاقة تاريخية ونقل حضارية تنهض على توحيد الشتات وتجميع القدرات وإطلاق الطاقات، وفي انتظار أن تستحيل هذه الضرورة واقعا يجدر إيجاد السبل العاجلة الكفيلة بترميم الكائن وتخفيف وطأة الفوضى المصطلحية الراهنة بين الأقطار العربية والعمل على إصلاح حال الترجمات ومنها ما يخص الشعر، مجال بحثنا.

وقد يعترض معترض بالقول إن المجامع اللغوية تشتغل والندوات تعقد وجمعيات المعجمية تنشط وكذا مؤسسات الترجمة والتعريب، وليس في الإمكان أفضل مما كان. اعتراض لا يخلو، مأخوذاً على عواهنه ، من وجهة لكن تدبر العلل الكامنة وراء عدم فاعلية مثل هذه الحلول والعزوف عن تنسيق الجهود وضم بعضها إلى بعض في مواجهة قضية كقضية المصطلح النقدي يظل مطلباً ملحاً.

واعتقادنا أن نشاط الهيئات والأطر التقليدية التي تجتمع دورياً أو بمناسبة، لن يجدي نفعا طالما لم يجتذب نحوه معشر الميدانيين نقادا ودارسين ومدرسين

وأهل كفاءة وتخصص، ولم يشركهم في مناقشة الملف وطرح المسائل والبحث عن البدائل ثم طالما لم تنهض الإرادات السياسية بما عليها.

إن برلماننا معجميا عربيا يعنى بمعالجة الواقع المصطلحي ويسعى إلى توحيد نقل مفرداته وإنهاء حالة التشرذم والتشتت والفوضى من شأنه أن يوفر حلا ظرفيا بديلا ولعله يشكل خطوة على طريق الصحو المنشودة.

وقد يقوى الوازع الإبداعي يوما ما على لمّ شتات الحسّ الحضاري العربيّ ومن ثمّة تنتقل آثار ذلك التلاؤم والتناغم لتصنع لها المنهاج والحكمة البالغة في كلّ المؤدّيات التفكيرية التي تضع النّقد الأدبي العربيّ في مساره الناجع الوظيفي، حيث يظهر التفكير النقدي الأدبي المدرسي الذي نراه الأكثر تناسبا وتلاؤما مع خصائص الإجراء النقدي الإصطلاحي ، لأنّ من شأن التفرّق أو التّشتّت الذي يسكن الضمير العربيّ أن تبرز آثاره الإجرائية لتشمل جميع النشاطات الروحية التي يعدّ الإبداعان الأدبي والنقدي أحد أهمّ نتائجها الواقعية.

و"الحق أن الدعوة إلى التوحيد متأتية من الإحساس بالفوضى في وضع المصطلحات التي أدت إلى تعدد المصطلحات وتداخلها وتناقضها أحيانا لكن توحيد المصطلحات ليس من الحلول السحرية التي تجعلنا ندخل رحاب العلم من أبوابه الواسعة⁷¹ ثم دون المسعى التوحيدي ما تزال قائمة عوائق النزعة الفردية والقطرية بما أدى إلى غزارة في اقتراح المصطلحات لكن متعددة مضطربة متعارضة "فكل مدرسة نقدية مثلا تحمل خلفها ترسانة من

⁷¹: عبد المحسن بدر ، مشكلة المنهج في النقد العربيّ المعاصر ، مجلة فصول ، ع:3 أبريل 1981
ص:24،

المصطلحات (ترجمة أعمال الشكلايين الروس مثلا) وعلى قدر فهم الناقد يترجم ويقترح ما يراه من المصطلحات مع زملائه في نفس الخندق وقد يتجاهلهم وقد يكون في غيبة عما ينتجون" ⁷².

ولم تغب ضرورة الاستنجا بأهل الاختصاص في "تدبير أمور المصطلح عند بعض أهل النظر على أساس أن التدبير ليس شأنا تقنيا يتكفل به مترجمون متمرسون يجيدون اللغات بل هو شأن معرفي بتكفل به المختصون في شتى فروع المعرفة" ⁷³ وأن "المصطلح فعل حضاري في المقام الأول" ⁷⁴ لذا ارتأينا فكرة البرلمان المعجمي العربي الذي تعنى إحدى لجانه الكبرى بالمصطلح النقدي الأدبي عامة والشعري خاصة، وتضم الفاعلين في الحقل نقادا ودارسين ومدرسين فضلا عن المعجميين واللغويين.

وما عسانا أن نقول بعد تدوير الكلام وتسييره في اتجاه ثبت آليات التداول الاصطلاحي في حيّز اعتبارات النقدية العربية خاصة منها تلك المتعلقة بالحدثة وإشكالات التحديث ، فالمتمعن لحقل الدلالة الاصطلاحية يستطيع أن يتوقع الأبعاد الإجماعية أو التفكير المدرسي الذي يصبو إليه الإجراء الاصطلاحي سواء أعلق الأمر بالوجهة النظرية منه أم بالوجهة التطبيقية ، غير أن ساحة النقد الأدبي العربي تبعا لما اعتور مسالكها من الإشكالات والمضايق والأزمات ما تزال توظف المصطلح النقدي من الوجهة أو الفهم

⁷²: عباس الصّوري ، بين التعريب والتّوحيد قضايا المصطلح في الأدب والعلوم الإنسانية أعمال

ندروة مكناس المغرب 2000 ، ص: 107

⁷³: سعيد بنكراد ، المصطلح السيميائي ، الأساس المعرفي والبعد التطبيقي قضايا المصطلح في الأدب

والعلوم الإنسانية ، م.س ، ص: 175

⁷⁴: سعيد بنكراد ، المصطلح السيميائي ، الأساس المعرفي والبعد التطبيقي قضايا المصطلح في الأدب

والعلوم الإنسانية ، م.س ، ص: 169

الدّاتي الذي لا يحرّر الرؤية النقدية الموضوعية بقدر ما يعزّز إشكالات الهيمنة الغنائية ، ولذلك فإنّنا نصبو خلال هذا البحث النقدي المقارب لهذا الحقل المعرفي المحفوظ بالملاحظات والتّحقّظات إلى اشتراط حضور مكثّف فعّال للمجامع اللّغوية والعلمية العربية من أجل أن تصبغ وجهة البحث الاصطلاحي بالمقدّرانّ العلمية والمنهاجية اللازمة لضبط سيرورة هذا التّوجّه النقديّ ، وإنّ كلّ تخلف عن إدراك هذا المرام سوف يبقّي الوظيفة النقدية رهينة التّخبّطات والمشاكل التي تسلب الوظيفة النقدية طموحاتها العلمية والإبداعية ، وهذا لا سبيل إلى تحقيقه إلاّ بميلاد وحدة التفكير العلمي العربيّ إذا كانت إبداعات الأمة العربية حقيقة تصدر عن تلك الطّاقة الإبداعية المتكاملة المودّدة في الإجراء والمساعي والطّموحات.

1-5- حقول الاستعمال النقدي التطبيقية:

لقد وضعت فلسفة الحداثة الأدباء العرب وبجانهم النقاد في وضعية حرجة فيقدر ما عملت هي أي الحداثة على استدراجهم لقول ما لم يقل في حيّز البحث النقدي العربيّ القديم ، فقد ظلّوا هم أي الأدباء العرب والنقاد مسكونين بهاجس المغايرة يحملهم كلّ طارئ على اقتراح المسمّيات الاصطلاحية التي تجهد نفسها باذلة كلّ قوى التّصوّر والتفكير من أجل احتلال المواقع التفهّمية المستجيبة لشروط الحداثة والعصرنة ، وبناء على استفحال هاجس المغايرة وتطلّبه بكلّ وسيلة أدبية أو نقدية فقد وجد الناقد العربيّ الحداثيّ نفسه مضطرا لتبنيّ المقولات النقدية المغامرة التي ستحتفظ خلالها بفضل شدة فورة اندفاعها التنظيري كلّ ما يمكن اللّجوء إليه من أجل السيطرة على هذا المؤدّي غير المضمون العواقب .

وقد يكون من الأرجح جدًا أنّ الذّروع إلى تجريب المثاقفة سير الثقافة العربية نحو تبني نتاجات الأمم الإنسانية الأخرى أو تأثرها على الأقل وهو الوازع الحاسم الذي يمكننا ترتيبه أمام الأثر الترجمي فيما يخصّ حقل النقد الأدبي الاصطلاحي (.إنطلاقاً من الذّنوّع الذي يخلق الفاعلية ...) ⁷⁵، فبمجرّد حصول التفاعلات الثقافية الأولى انبرى جمع من المستشرقين يستوعب لسان الشّعوب المغلوبة وقد صار ذلك الثّماسّ لاحقاً طبيعة ثقافية تمثّعت بجدوى بالغة الأهمية هي التي كان لها النّصيب غير القليل في تنشيط حقل النقد الأدبي الاصطلاحي الذي عليه مدار البحث .

وبالرّغم من أنّ النقاد العرب الحداثيين ظلّوا متفاوتي المواقف والفلسفات التحديثية فقد اجتمعوا على مزية واحدة تجمعهم تكاد تكون متمثلة في تبني موقف مغايرة التراث النّقدي الوعبيّ القديم ، لذلك فإنّ من المغالطة بمكان أن يعتقد الدّارس أنّ كلّ نظر منهم إلى الوراء يقتضي تبنيّ المواقف المعنية من تلك الالتفاتة التراثية وإنّما كانوا جميعاً نقاداً وأدباء يهرعون إلى الإلمام بالثّراث من أجل بذل كلّ الجهود القرائية التي يمكن اعتمادها في مداخلة الرؤية النقدية الحداثيّة ، ومن ثمة ، وبناء على هذا الواقع الثقافي الذي سيظلّ يحضر بكثافة وغازرة ، سوف يتمدّدون المواقف الدّاعمة لمذاهبهم الناقضة لأصول التراثية وربّما كان منطلقهم المفضّل هو كسر المصطلحات النقدية البلاغية وتصييرها قابلة لمداخلة المصطلحات النقدية الترجمية من مثل تلك التي صار لها رواج كبير بين الأدباء والنقاد العرب الحداثيين ، لذلك ألفينا

⁷⁵عزّ الدين المناصرة ، المثاقفة والنقد المقارن ، منظور إشكاليّ ط 1 ، المؤسسة العربية للدراسات والنّشر 1996، ص 37

مصطفى ناصف وهو أحد الحداثيين المتعقلين الذين لم يداخلوا التفكير النقدي الحداثي بالمغالاة والمقاطعة للتراث يتبنّى سياقاً تفكيرياً ينطلق من تفكيك البنية الاصطلاحية التراثية فيما يتعلق بالبلاغة العربية وقد أفضى به الاعتدال إلى ملامسة الغايات التنظيرية الواقعة في هذا السياق بجملة من المقولات النقدية النظرية والتطبيقية التي تحتشد باعتبارها ثراء ثقافياً نقدياً عربياً حداثياً فيقول بصريح العبارة (الفتنة بالتشبيه فتنة قديمة تلخص المنهج العربي المحافظ ...)⁷⁶ وربما لم يعادل ناقد عربي الناقد مصطفى ناصف في طبيعة اضطراره بإبراز اللهجة الانتقادية الواضحة لموروث النقد الأدبي العربي القديم فقد ظلّ في كلّ مناسبة يكيل الملاحظات التي تحتشد جاهدة من أجل تأسيس فلسفة النّقص التي ستغدو لاحقاً بمثابة المبرر الموضوعي لتبنيّ فلسفة المغايرة .

ولقد لاحظنا الناقد مصطفى ناصف يستجمع كلّ ما أوتي من قوى البرهان والتفهيم والتبرير العاملة على تسويق الفعل الثقافي النقدي الذي يحاول أن يتموقع بديلاً عن القناعات النقدية العربية التراثية خاصة منها تلك التي ظلت تشكّل جوهر التفكير العربي الإسلامي أي تلك التي ظلت طيلة العصور الأدبية العربية تصنع بلاغة الدّرس البلاغي القرآني ، وقد ظلّ مصطفى ناصف على مرّ تجاربه التأسيسية الرامية إلى بلورة نقد عربي حداثي أكثر تعقلاً يبحث عن آليات الانتقال من الدّرس البلاغي العربي القديم إلى رصد ما يمكن أن يتطلّبه مشروع الانتقال إلى الدّرس النقدي التطبيقي أي الاصطلاحية ، وقد استفرغ كثيراً من طاقاته التفكيرية في محاولة إعادة تأسيس كثير من النّظريات النقدية العربية خاصة فيما يتعلق بالقراءة الحداثية للمصطلح البلاغي

⁷⁶: د. مصطفى ناصف ، الصورة الأدبية ، ص: 46

العربيّ وبالتّحديد في موضوع الاستعارة ، وقد ارتأى أنّ القدماء كانوا دائماً يؤسّسون لمنظورهم البلاغي بإظهار العاطفة القومية أو الدينية التي يراها غير ناجعة في حقل الدّراسات العلمية التي هي أهمّ ركيزة يقوم عليها منظور النقد الأدبي المعاصر⁷⁷ .

وقد عمل الناقد على صياغة هذا الاحتقان بعزاء موقف التّراثيين بقوله:
(لقد التزموا إنتاج أدباء في ظروف زمنية خاصّة ورثبوا ما شاءوا من حكم عليه)⁷⁸ ، وعلى أمكن تقدير ، وأعدل نظر، فإنّنا أبصرنا بمصطفى ناصف يداخل التّراث مثله مثل أدونيس جامعا بين الكفاءة الاستيعابية البالغة وبين النية الواضحة في التأسيس لنظرية المغامرة إلّا أنّ الفارق التّكويني بين الرّجلين سيظلّ يتفاوت فيحدّيهما في التّعصّب أو التّعقل أو التّحفظ كلاهما يرمي إلى مقدّرات تفكيرية ، ستتماهى رؤية مصطفى ناصف ذائبة بين النّظريات النقدية المتعلّقة بوسطيتها فهي لا تكاد تميّز من المغالاة وأمّا وجهة أدونيس فستظلّ مستفردة بغرابة مسعاها لا تجد من يحتضنها على الأقل في الدّرس الأدبي أو البلاغي العربيّ الرّسمي أي المدرسيّ .

والنقد الأدبي العربيّ في تعويله على حقل الدراسات البلاغية خاصة تلك المتعلّقة بدراسة آليات تركيب لغة الشّعور ليس بدعا ولا هو يأتي غفلا ساذجا بل سيجد له المتفكّر كثيرا من علامات العالمية أو العولمة إذا صحّ التّعبير بين كثير من منطلقات التفكير النقدي العالمي الحديثة ، فقد سعى فرانسوا مورو في كتاب "الصّدورة الأدبية" الذي توسّمناه مقاربا لذات الوجهة والطّرح النقدي

⁷⁷: د. مصطفى ناصف ، الصورة الأدبية ، ص: 47.

⁷⁸: مصطفى ناصف ، الصورة الأدبية ، ص: ن.

الذي عوّل عليه مصطفى ناصف في كتاب الصّورة الأدبية على الأقل من جهة التّطابق في المذهب الاصطلاحي بين المؤلّفين ، فقد عمد فرانسوا مورو إلى إعطاء المكانة البالغة لمداخلة موضوع الصورة الأدبية من خلال التمهيد ببذل الأسباب والأعذار والمسوّغات القاضية بتبني مصطلح الصورة الأدبية ، فكان أن تتبّع سياق النشاط الدّلالي لهذا المصطلح النقدي الذي سيظلّ مصطلحا محوريا ذا أهمية بالغة في الدّرس النقدي التّطبيقي في الأدبية العربية الحديثة ، وقد أبان فرانسوا مورو عن أنّ حقيقة التسمية الاصطلاحية للصورة الأدبية ليست سوى محاولة للقبض على إحساس يصعب أسرّه أو التقاطه أو القبض عليه ، وقد كان gaston bachelard قد اهتمّ بهذا المنزع النقدي حين قال: (... تمنح الاستعارة جسدا ماديا لإحساس يصعب التعبير عنه...) ⁷⁹ ، والذي هو ملاحظ لدى متتبّع خصوصيات تطور الموضوع النقدي المحوري الحساس مثلما هو الشّأن في موضوع قياس طبيعة الانتقال من حيز الاستعمالات النقدية البلاغية إلى حيز الاستعمالات الحداثيّة للإجراءات النقدية التّطبيقية يستطيع أن يتبيّن بأنّ البوّابة لدى النقاد العرب الحداثيين كانت تعوّل كثيرا على مداخلة هذا الحقل المعرفي انطلاقا من تهية علم الاصطلاح النقديّ ، فقد ظلّ النّاقّد الأدبي الحداثي يجد في جدّة المصطلح النقدي الحداثي الوسيلة الغالبة والدّعاية المروّجة لثقافة النقد الحداثي ، إلى درجة صار معها المصطلح يعمل عملا إبهاريا تعجيبيا لا سبيل إلى إخفاء غوايته على المتلقّي ، ويستطيع الباحث المتفرّغ لمتابعة هذا المنحى المخلص لمكاشفة أسرار لعبة الاصطلاح النقدي الحداثي أن يقف كثيرا على مواطن الإشارات النّظرية التي تجتهد من أجل بذل

⁷⁹ غاستون باشلار ، جماليات المكان ، ص: 49

كلّ أسباب التّبرير والإرضاء للقارئ العربيّ الجديد ، فقد صادفنا بعض النّقاد يقول: (... وابتغاء تحديد الرّمز ينبغي علينا أن نبدأ بمفهومات يسيرة ساذجة ننظر فيها لننفّسها ونصعد إلى الدّلالة الحقّة ، في وهما ، لهذا المصطلح الذي تتكاثف من حوله اختلافات واستعمالات متباينة ...) ⁸⁰ ، ومثلما هو متّضح بيّن فإنّ معظم النقاد ظلّوا يجرون أحاجيهم النقدية الحداثيّة في مرمى دائرة هم يعترفون بأنّها ضيّقة حرجة ، أي أنّهم ما كانوا ليستوثقوا بعري الاستقبال أو التّلقّي في الجهة الأخرى لقد ظلّ الناقد العربيّ لا يستأنس بالقارئ ومن ثمّة فقد أحسّ كلاهما بتفكّك عرى التواصل المعرفي والثقافي الصّحيح باعتبار الثقافة العربيّة الحداثيّة كلّها مشروعا خاضعا للأخذ والردّ ، فالناقد العربيّ مهما أوتي براعة النّظر أو التّطبيق فإنّه لا يقوى أن يمضي طليقا حرّا غير مرتبك في تفكيره أو تصوّره لمسائل التّطبيق النقدي التي ظلت تحضر بالحاح في حيّز الإبداع الأدبي العربيّ الجديد.

ومثلما يبدو للمتمعّن في سيرورة النقد العربيّ المعاصر ، فقد جهد أعلامه البارزون في بلورة المنطلق الحضاريّ عن طريق حشد مكوّنات التّحديث والعصرنة ، وبالموازاة مع ذلك المسار فقد سعى النقد العربيّ الحديث أو الحداثي أو المعاصر إلى اعتماد صوت نقد النّقد ونبرته ولهجته ، باعتباره السبيل الوحيدة لتأسيس المقولات النقدية المغايرة التي تتشبع بشجاعة اقتراح البديل الاصطلاحي ، ويكون من البديهي أن يسعى نقد النقد المعاصر إلى جمع الأدوات والآليات اللائقة بذلك التّوجّه أي تلك التي تعتمد سبيلا لبثّ وترسيخ مقوّمات الفكر الفلسفي الحديث والمعاصر ، وهو الفكر الذي كان لزاما عليه أن

⁸⁰: د. مصطفى ناصف ، الصورة الأدبية ، ص: 152

يغترف من معين الفلسفة الإنسانية المعاصرة أي تلك التي تنادي بتحرير الإنسان ثقافة وسياسة واقتصادا بمعنى تفريغه من كل الالتزامات الحياتية القاهرة التي رآها المفكرون على أنها تقف أبدا حجر عثرة أمام تطوّر الفكر وتحرير الإحساس وتشجيع الانفعال الحرّ بقيم الحياة العربية المعاصرة .

وسيكون من الموضوعي جدّا القول ضرورة بحقيقة ما انبثق عنه سياق تحديث النقدي العربيّ فقد وجد الناقد العربيّ نفسه ملزما بالتزام المواقف الريادية التي قد تدفعه في كثير من الأحيان إلى تبني المواقف الحاسمة من أجل بلورة حقيقة ذلك التوجّه ، وربّما وجد الناقد العربيّ نفسه منساقا وراء تبني بعض الطّروحات الفكرية والفلسفية الحداثيّة التي تتعارض مع تقديس الأصول العربية أو تلك التي قد يضطرّ متبنيها إلى التفريط في الآليات اللغوية والأدبية التي ظلت إلى فترة طويلة من تاريخ الأدبية العربية تشكّل العمود الفقري لسياق الأدبية العربية من مثل تعارض الحداثة مع مقوّمات القصيدة العربية من مثل الوزن والقافية وبعض الأدوات البنائية التي تدخل في تقنيات التعبير العربيّ الأصيل نحوًا وصرفًا وبلاغة وأسلوبًا ، ولقد وجد الناقد العربيّ المشدّت بين الأصل والبديل نفسه لاهثًا وراء استقصاء الحقول الدلالية الواسعة التي تشكّل المعجمية الأدبية العربية التراثية ، لأنّه قد بات ملزما بإيجاد الكلّ الثقافي المتكامل الذي ينبني على شروط أدائية بالغة الاعتبار فالحداثة من شروطها ألا تقبل التّعاشي البيني أو الانتصافي فهي إمّا أن تحضر كلية أو تغيب جميعا (وإذا كان كلّ خطاب يقوم على اللغة التي تدفعه ليكتسب هذه الصّفة أو تلك ، فإنّ خطاب نقد النّقد يتميّز بلغته الاصطلاحية التي يعتمد عليها ، أو ما يعرف بالمصطلح ، ولعلّ ما يميّز العلوم بعضها عن بعض هو

اختلاف مصطلحاتها ودقتها ، وبتخصيص المصطلح ودقته تستطيع المعرفة أن تتحدّد وتتمكّن من التطوّر بصورة سريعة وبشكل فعّال ، والمصطلح بهذا المعنى علامة دالة محدّدة لحقل معرفيّ معيّن أو قل : إنّه يسم الخطاب ويعلمه⁸¹

ونستطيع بعد معاينة أهمّ المقولات النقدية التأسيسية الناهضة على دعامة فورة الثورة التحديثية في النقد العربيّ المعاصر أن نقول: لقد بات الفارق العملي بين النقد الأدبي العربيّ القديم وبين بديله الحداثي مسألة تتوزّع بين النظري والتطبيقي ، فقد يلاحظ المستقريّ لمعطيات المسألة أنّ النقد العربيّ القديم كان يفتقر إلى المنهاج الآليّ الطَّبِيقِيّ الذي يشدّص الظاهرة النقدية ويمدّصها للمتلقّي ، وربّما ليس هناك من تعليل لتوخيهم هذا الترتيب الوظيفي سوى كوننا اليوم نختلف عن القدماء من حيث المستوى المعرفي من حيث قرب اللغة أوبعدها عن الحسنّ والوعي.

ولتجدّر الدّابير النقدية الحداثيّة خاصّة منها تلك التي قامت من أجل التأسيس للثقافة النقدية الأدبية العربية الحداثيّة أو حتّى الأدبية العربية المعاصرة التي تعتبر من أبرد التّزوعات التحديثيّة إذا ما قورنت مع فورة حسنّ الحداثيّة ، فقد ترسّخ لدينا الآن اعتبار محور قائم على مدى غزارة التّوجّهات الساعية إلى الإحاطة بتلك الرؤية وعلى سبيل المثال فقد طفق نقاد عرب كثيرون ومتميّزون يعيدون التّظر في المفاهيم الشّعريّة العربية من منطلق تحديّثي ، وقد يتساءل قارئ عن لماذا كانت تلك الرعاية والأولوية لحقل

⁸¹:أحمد أبو حسن ، مدخل إلى علم المصطلح ، المصطلح ونقد النقد العربيّ الحديث ، مجلّة الفكر العربيّ المعاصر ، ع: 61/60 ، ص: 84

المعرفة الشعريّة قبل غيرها من الحقول الدّراسية النّقدية الأخرى ، غير أنّ الإجابة عن هذا التّساؤل تبدو لنا واضحة بيّنة فالأمر كذلك لأنّ الحسّ العربيّ يتمركز ضمن سياق اهتمام أدبيّ متميّز هو الدّشّاط الشعريّ ، وقد كانت الثقافة العربيّة الإسلاميّة منذ القديم كذلك وما تزال دائبة على ذات القناعات البلاغيّة ، والعرب وإن اهتموا حدّاثيا بالكتابات النّثرية فإنّهم ما فتئوا يجيبون بطريقة غير صريحة واضحة عن تلك المرجعيّة الشعريّة التي شهدنا بأنّها الغاية التي لا تغيب والمنزع الذي لا ينطمس على مرّ الأجيال الأدبيّة والعصور الحضريّة ، ويكفيّننا دليلا على هذا الذي رأيناه أنّ الشّعْر اليوم في الثقافة الأدبيّة العربيّة الحدّاثيّة صار يطغى على كلّ قراءة نقدية ولا شيء غير ذلك فالشّعريّة هاجس ثقافي نقدي وفلسفي يهيمن هيمنة بالغة على كلّ النشاط الأدبيّ العربيّ الحدّاثيّ وهم يرون في تمكّن القصيدة على أنّ (...علاقتها مع الواقع لا تستنفد دلالاتها...) ⁸² أي أنّها تبقى دائما حاضرة التبرير النقدي والتّسويغ الفهمي والتّخريج الحسّي وتلك جميعها آليات قرآنيّة تجعل القصيدة قابلة للقراءة لدى كلّ مناسبة حضارية.

لقد أنتج التفكير النقديّ الأدبيّ العربيّ المعاصر جملة من التّحوّلات في سياق الرّصيد الاصطلاحيّ وقد بات لزاما على الناقد المتنبّي لنهج الحدّاثيّة أن يكون ملماّ بذلك الرّصيد وآليات استعماله وفق متطلّبات الرّؤية الفلسفيّة التي يعتمدها هذا التّنهج النقديّ الجديد ، وقد يكون من البدهي لفت الانتباه إلى سيادة مقولات اصطلاحية في حيّز التفكير الشعريّ يأتي مصطلح الإيقاع ، والتّشكيل

⁸² جمال الدّين بن شيخ ، الشّعريّة العربيّة ، ترجمة : مبارك حتّون ، ومحمّد الولي ومحمد أوراغ ، ط: 1 دار توبقال للنّشر 1996 ، ص: 6

، والموسيقى ، والتّغيم ، على أنّه المعطى الدّاولي المسيطر ، فالذي صار معيارا ينتهج نسقه التفكيرى في حيّز الاعتبار النقدية الأدبية الحداثية هو أنّ المصطلح النقدي ذاته صار متداولاً وفق غايتين هما : المصطلح أداة نقدية ، والمصطلح موضوعاً تداولياً يحيل على مظانّ تفكيرية صارت لها معجميتها الاشتقاقية المبينة عن شكل من الانسجام في التفكير النقدي الجديد.

جدير بالذّكر هنا هو أنّ الثقافة النقدية الأدبية الحديثة مئسمة بالنّشاط والحيوية والإحالة على التفكير المعرفى المتحوّل المشبع بالإحالات المستقبلية أي تلك التي ترى في النّظرية النقدية الحديثة مشروعاً حضارياً يعمل على تجاوز تآزّم الحاضر وانغلاقه على التّجربة العربية الأخرى ، وهي التي كبّلت رؤى الإبداع الواقعي الأخرى اجتماعاً واقتصاداً وسياسة وتاريخاً ، وقد نجد في شيء من هذا التفكير النقدي ضرباً من محاولة التّوأمة بين مشروع الإبداع الأدبي خاصّة الشّعور من ذلك وبين مشروع الرؤية النقدية عندما يلتقيان حول مؤدّى وظيفي واحد ظلّ محكوماً بالغموض والتّهويم والحوول والانفلات وهي جميعها مواصفات دالة على افتقاد الثقافة النقدية العربية الحديثة لجذوى الواقعية والنّجاعة الاجتماعية.

والذي يبحث في الكتابات النقدية الحداثية يستطيع أن يلمس عن كثب العناية الفائقة التي يبديها النّقاد العرب خلال تقديماتهم الافتتاحية للكتب النقدية الأجنبية المترجمة حيث يعربون بصورة واضحة أو بما هو لا يخفى على المتفكّر عن حقيقة التفكّك الثقافي الذي باتوا يلاقونه حاضراً في كلّ خطوة يخطونها في اتّجاه التّأسيس للأدبية العربية وخاصّة منها الجانب النقدي وعلى الأخصّ من ذينك التّأسيس للنّقد الاصطلاحي الذي صار يشكّل توجّهاً مدرسياً

أكاديميا غالبا على ما سواه من الإجراءات التحديثية الأخرى ، وقد يكفينا برهانا على ما نحن بصدد تبيانه في هذا الموضع من بحث إشكالية المصطلح في النقد الأدبي العربيّ المعاصر أن نستقطع عيّنة نقدية تقديمية وردت في أحد أهمّ الكتب الترجمية والتي عوّلت على تقديم الثقافة النقدية الاصطلاحية الحداثيّة حين يقول (شاع الحديث منذ سنوات عن النظريات والمناهج النقدية الحديثة في البلاد العربية ، بعد المعارضة والصدّود ، فاصطنع بعض النقاد تلك المناهج ، ومنها البنيوية في استنتاج النصوص ، وقدّموا تلك النظريات ومنها الشعريّة تقديمًا يتفاوت دقّة وعمقا ...) ⁸³ ، وقد وجدنا ما أملنا في مصادفته حاضرا نطقت به ضرورة التوضيح التي ظلت سبيل وبغية كلّ مترجم للثقافة النقدية الحداثيّة ، فقد كان لزاما على إمساس إشكال المصطلح النقدي باعتباره البوابة الوحيدة التي لا يمكن تجاوزها للعبور إلى الثقافة النقدية الأدبية العربية الجديدة ، فالذّناول الإشكالي هو المحرّض الرئيس في مداخله كلّ مظانّ موضوع المصطلح النقدي. ⁸⁴ .

6-1- ثقافة الملاحق الاصطلاحية:

لقد شاع بكلّ وضوح لجوء النقاد الترجمين إلى تبني ثقافة الإجراء الإلحاقى بواسطة رصد أهمّ المسمّيات الاصطلاحية التي تكوّن سباق التفكير النقدي في أيّ مشروع يقبلون عليه ، وتبعًا لذلك فقد صادفنا كتاب طودوروف "في الشعريّة" مستوجبا ضربا من الثقافة أسميناها ثقافة الملاحق الاصطلاحية تبوّب وفق تصنيف أبجديّ يحاول أن يأتي شاملا لكلّ المؤدّيات الثقافية

⁸³: ترفيطان طودوروف ، الشعريّة ، مقدّمة الترجمة ص: 5

⁸⁴ ينظر المقدّمة حيث صرّح المترجمان لكتاب الشعريّة بما يفيد طبيعة الإشكال الذي صادفاه خلال نقل لغة النقد في موضوع الشعريّة من اللغة الأصليّة إلى اللغة العربيّة ، ص: 7

والمعرفية التي اتّصلت بها أبواب الكتاب المقدّم ، وبالمناسبة فقد تذيّل كتاب
الشّعريّة بمجموعة من المصطلحات الفنية والعلمية وردت في ما ينيف على
مائة وستة وخمسين اصطلاحاً تتفاوت بين المحوريّ والجانبّيّ ، غير أنّ
الانتظام المعجمي لتلك المصطلحات وإن كان يسلك سبيل الترتيب القاموسي
إلا أنّه يثير جملة من التساؤلات والاهتمامات البالغة الشّأن منها أنّ ترتيب
الاصطلاح مشتركاً بين لغتين اللغة العربية واللغة الفرنسية لا يجعل من اللغة
التحويلية قيمة تشبّعية بل يبقّيها رهينة الخيارات النقدية التي أتت في أصل لغة
الكتاب ، بمعنى أنّ ترجمة المصطلح لا تفضي بالضرورة إلى تفاهم أو تفهم
كلّي بين الثقافتين ثقافة الأصل وثقافة الترجمة ، لذلك فإنّ المهمّة الحاسمة
للوظيفة النقدية من منظور نقد النقد الذي سنتبّاه نحن في سياق بحث إشكالية
المصطلح النقدي في النقد الأدبي العربيّ المعاصر ستبقى في منظورنا محدودة
الأثر منعدمة الجدوى إن هي لم تلاقح واقعاً ثقافياً أو فكرياً مدعّماً بالرّصيد
الواقعي سياسة واجتماعاً واقتصاداً وتاريخاً يقوى على احتضان تلك البدائل
النقدية والفكرية المستوردة من تجارب الشّعوب الأخرى.

ويبدو واضحاً جدّاً لمن يتعمّق الفكر النقدي الأدبي العربيّ المعاصر أنّ
كثيراً من العناوين التي أوردها نقاد الغرب ثمّ أجريت عليها التّأثيرات الترجّمية
في حيّز اعتبارات النقد الأدبي العربيّ المعاصر ظلّت في نظر كثير من النقاد
مسكونة بالإجراء الإصطلاحي ، يجرونها مجرى الصيغة الاصطلاحية
الكبرى أي المصطلح الذي يتّخذ من العبارة اللغوية سياقاً إجرائياً يشترط
حضوره التّطبيقي ضروباً من التسميات الاسمية المطوّلة وقد رأينا أن نمثّل

لهذا النموذج الاصطلاحي بالمقولات الاسمية المركبة التي نستعرضها وفق المصادر التي لا تقبل التفكيك أو التجزئة من مثل : سجلات الكلام⁸⁵.

لقد دفعت ثورة النقد الاصطلاحي ، وشعور الناقد العربيّ به حاجة ماسّة في تمثين عرى التفكير العلمي في حيّز الإجراءات النقدية التطبيقية ، فحدثت إثر هذا التسرّع الذي اقتضاه الإلزام الحضاريّ خروقات ثقافية اكتسبت مشروعيتها الواقعية من خلال حاجة الثقافة العربية الماسّة إلى مبرّر تكويني جديد سيكون المصطلح هو أقوى دعوى ترفع في وجه التّحديات التي حاولت أن تقف في طريق إرساء المفاهيم النقدية الحداثيّة التي مثلما قلنا وكرّرنا ظلّ المجتمع العربيّ يقف منها موقف المشكّك في المصادقية بل ربّما نظر إليها على أنّها امتداد موضوعي وطبيعي لمشروع التغريب والاستشراق، وعلى سبيل المثال فإنّ كلّ الباحثين المتعمّقين لآثار الثقافة العربية الإسلامية يعلمون العلم اليقين أنّ عبد القاهر الجرجاني هو صاحب البنية الاسمية الاصطلاحية القائمة على التركيب الإضافي : معنى المعنى وقد تأرّخ ابتداعها انطلاقاً من المقولات الفنية الثورية التي تشجّع في تبنيها خلال كتابه دلائل الإعجاز⁸⁶ ، وبالرّغم من الثورة التي أحدثها منظور هذا المصطلح القديم الجديد فقد ظلّ النقاد العرب يستوردون النموذج الغربيّ الترجمي منه صادّين عن دلالاته الأصليّة في حيّز الثقافة الأدبية العربية مثلما يدرك ذلك كلّ باحث نزيه.

لقد ظلّ النزوع الاصطلاحي في الاعتبارات النقدية الأدبية العربية الحديثة يبرز دائماً بصفته وسيلة تفعيل لثقافة النقد الأدبي الترجمي وربّما خفف

⁸⁵: ينظر : طودوروف ، الشّعريّة ، ص:38

⁸⁶: ينظر ، عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، 1981، ص: 204

مداخلوه بعضا من غلواء وصعوبات تقديمه مطلبا ثقافيا ضروريا بمحاولة إيجاد المرتكزات التراثية فطفقوا يلوون كلّ مسمى اصطلاحي إلى أصوله العربية مغالبة لقوى الرّفّض من قطاعات القرّاء وفئاتهم استرضاء وتقرّبا من مشروعهم الثقافي الانتقادي الذي سيظلّ يهيمن على كثير من الطّروحات الإبداعية المتشبّثة بالأصول المرجعية في كلّ نظرية أدبية أو نقدية تبرز إلى الوجود ، ولقد تقوّى هذا الحسّ أو التّوجّه حتّى صار يمثل فئة عريضة من فئات المتلقين ، هو هذا التّوجّه ذاته الذي سعى إلى تعطيل إقرار مبادئ تنثير الشّعور وتحويله من قيمه البلاغية والوزنية التراثية إلى معايير نقدية وإبداعية وافدة على الأدب العربيّ من خارج خارطته الواقعية.

ولعلّ من أبرز الإشكالات التي تصادف كلّ مداخل لحركة تحديث الأدب العربيّ هو الاسقاطات الاصطلاحية القلّمة على تسمية الظّاهرة الأدبية العربية التراثية بمسميات اصطلاحية حديثة من مثل أن ينحو الناقد إلى بحث الأصول الشّعورية النثرية في كتابات الأدباء العرب القدامى وهو يعلم أنّ العقلية العربية الأصولية لم تترك لهذا المنزع من بين يديها سبيلا إلى التّحقّق فلقد ظلّ القدماء جازمين في تسمية كلّ جنس أدبيّ بما هو خليف به وأجدر ، ولقد ذهب توفيق الزّيّدي في ما يشاكل هذا التّوجّه حين بحث منزع الأدبية في التّراث النقدي العربيّ ، وقد كانت سبيله إلى تحقيق هذه الرؤية النقدية التّشبّث بكلّ المعطيات الإبداعية المتماشية مع ما يفيد مصطلح الأدبية، وقد كان الباحث يراجع في كلّ مناسبة من مباحثه الغايات الفكرية القاضية بالتأسيس لمؤدّي نقديّ إبداعيّ يتقوّم باسم الأدبية مشاكلا في أسسه المعرفية لصنوه مفهوم الشّعورية ، فالأدبية والشّعورية لهما معا منطلقات تراثية حاسمة لا يملك الناقد أن يتفرّع في

معطياتهما الفكرية إلا بالقدر الذي قد تفرزه النشاطات الإبداعية المنطلقة من معطيات الخطاب الأدبي ذاته ، وإنّ كلّ تجاوز لحقيقة المكوّن النقدي العربيّ التراثي سيظلّ ضرباً من التمدّل والتّنطّع والتقولّ فوق ما تحتمله المقولات النقدية التراثية في جوهرها المعرفيّ الأصيل⁸⁷.

وقد كان لزاماً على كلّ النّقاد الصّادقين في تحسّسهم المناطق التفكيرية الواقعية أي تلك التي شكّلت وتشكّل عصب حياة التفكير الأدبي إبداعاً ونقداً أن يتودّدوا في اهتمامات عبر ملامسة الحقائق التي نبضت بها فاعلية الثقافة الأدبية الحداثيّة لذلك صادفنا معظمهم يتودّد ضمن هاجس غالب ينسرد ضمن مقولات نقدية تكاد تقع حافراً على حافر من شدة تلاؤمها حيث تكاد تقول بلسان المعرفة الواحد : ما من شكّ في أنّ مصطلح الشّعريّة من المصطلحات التي راجت في الدّراسات الحديثة الخاصة بالشّعّر ، بل إنّ هذا المصطلح قد صار عنواناً لدراسات لُبّية أو نقدية معاصرة ، المهمّ أنّ المصطلح في دلّالته يعني - هنا أو هناك - الاستجابة النفسية المصاحبة للشّعّر وهي استجابة لا تنفكّ تتّصل بما يتقوّم به الشّعّر من خصائص نوعية تميّزه عن غيره من سائر الأنشطة التي تشترك معه في المهمّة وتختلف عنه في الأداة...⁸⁸.

والمهمّ هو أنّ مصطلح الشّعريّة قد مارس غواية عارمة مسّت كثيراً من متعاطي النقد الحداثي ، ولو فتّشنا في الأصول المرجعية لهذا المسمّى التركيبي

⁸⁷: ينظر ، توفيق الزّبيدي ، مفهوم الأدبية في التراث النقدي ، سراس للنشر ، 1985 ، ص: 73/72/71/70.
⁸⁸: د. قاسم المومني ، شعريّة الشّعّر ، ط: [مطبعة الجامعة الأردنية عمّان 2002 ، ص: 13]

الذي ساد كثيرا حيث يعمد النقاد إلى اشتقاق الكلمتين المضافتين بعضهما إلى بعض يصوغون منها معنى نقديا توليديا كأن يقولوا شعرية الشعر ونثرية النثر وشكلية الشكل وإيقاع الإيقاع ووزن الوزن ، فقد استهواهم هذا التركيب الاصطلاحي الجذاب حتى صاروا يرتجلون المسميات ويرمونها عبثا على عواهنها لا يرقبون في ذلك أن يصيبوا قداسة التراث بلائمة التحريف.

وإذا كان لزاما علينا أن نبادر إلى تعميق النظر في كلّ المؤثرات الفكرية التي أسهمت إسهاما بالغا في التوجّه نحو تأسيس اصطلاحى لمشروع حداثة الأدب العربيّ فإننا حين تدبّرنا مجمل النشاطات الأدبية والفكرية والإبداعية صادفناها تتوزّع في كثير من الأحيان عبر مسلكين رئيسيين هما الاصطلاح المتبنيّ تسمية المذاهب الأدبية التي لاقت رواجاً تداولياً بالغا من مثل الواقعية والالتزام والمدارس الأدبية الفنية الأخرى فقد شاعت الواقعية في الممارسات الأدبية والنقدية العربية الحديثة على أنّها (... مصطلح فنيّ حديث لا صلة له بالواقع الساذج ...) ⁸⁹ ، لذلك فإنّ من شأن هذا الاصطلاح الذي غدا مسيطرا على كثير من النزوعات التفكيرية في حيّز الممارسة النقدية الحديثة أن يحيل على مرجعيات أدبية وظيفية أدّت بالأدباء إلى التحلّي بما يقتضيه تبنيّ هذا المصطلح الذي لا نراه نحن مصطلحا فنياً بقدر ما شكّل إحالات تفكيرية وفلسفية واجتماعية طالما تغنى بها الأدباء العرب الاشتراكيون ، ولم يكن لهذا المصطلح أن يسير لوحده بل صار مكتنفا بدلالات نقدية اصطلاحية اتخذت شكل الشعار السياسي الضّاغط من مثل التقليد والتجديد والالتزام والفنية

⁸⁹: دجلمي مرزوق ، تطوّر النقد والتفكير الأدبي الحديث في الربع الأوّل من القرن العشرين ، دار النهضة العربية بيروت لبنان ، 1982، ص: 126

والموضوعية ، ومن ثمّة وبناء على الدّلالة الضّاغطة التي شكّلت هذه الثقافة النقدية الاصطلاحية الإلزامية والتي صارت تشكّل موضة الوقت فقد صارت معها طاقات الإبداع الأدبي تتهاوى وتفقد عناصرها الجمالية ، وقد أفضى هذا التفهقر في الإمكانيات الإبداعية لراهن الأدب العربيّ شعره ونثره ، وقد كان هذا التّأزّم كافيا لإنتاج طبيعة في الممارسات الأدبية صارت تجعل المتلقي يعزف عن مباركة معظم النتاجات الأدبية العربية الحديثة .

الفصل الثالث

1- المصطلح النقدي :

لعلّ الذي لا خلاف حوله هو أنّ النزوع الاصطلاحي في النقد الأدبي عامّة والنقد الأدبي العربيّ خاصّة واقع في إطار التحوّلات الحاسمة في الثقافة النقدية الإنسانية التي باتت تخيّم على ثقافة النقد الأدبي الحديثة .

هذا ولا يخفى أنّ للنزوع الاصطلاحي حقائق ثقافية لا تكاد تخفى أماراتها في حيّز الدّراسات الدينية والفكرية الأخرى ، فالإجراء الاصطلاحي يكاد يستحوذ مسيطرا على مناهج المعرفة الحديثة والمعاصرة سيطرة المناهج التعليلية أو الفكرية التي باتت لا تغيب عن أيّ مشروع حدائي سواء أتعلق الأمر بالاصطلاح الفلسفي أم الاصطلاح الفقهي أم الاصطلاح الأدبي الذي تنقاسمه ظاهرة الإبداع الأدبي إلى جانب ظاهرة ابتداع الأفكار النقدية أي تلك المحلّة أو المتفهّمة أو المقارنة أو القارئة .

لقد صار النزوع الطبيعي إلى الاصطلاح المرجعي يشكّل حاجة ماسّة هي بالضرورة المغلف للمبرّرات الإجرائية التي تمهّد لكلّ تفهّم نقدي لذلك تبدو طبيعة النزوع الاصطلاحي على أنّها تأتي ذات مغزى تبريري ظاهر فهذا محمّد المبارك⁹⁰ يستعدّ لمداخلة مفهوم القراءة في مشروع استقبال النصّ عند العرب ببسط توطئة تبينية ترد مورد الاصطلاح قبل الإيغال في استعراض المفاهيم العميقة لمفهوم القراءة النقدية أو الاستقبال النصّي وهو وفاقا لذلك لا يتوانى في أن يقول: (وضعت لاصطلاح التقلّي ألفاظ مشتركة في مناهج الدّراسات الأدبية الحديثة ، وقد تعذر لإيراد هذه الألفاظ أسماء وصفات' بتسلسل تاريخي دقيق ومقبول بسبب كثرتها وتداخلها وصعوبة الفصل بينها ...

⁹⁰ :استقبال النصّ عند العرب ، ط: 1 المؤسسة العربية للدّراسات والنشر ، 1999، ص: 27

وقد يكون التَّلَقِّي أو القراءة لفظين جديرين بالعناية لكونهما يؤدَّيان الغرض المقصود ، بيد أنَّ طبيعة الدراسات الأدبية المعاصرة وارتباطها بالعلوم الأخرى لا سيما الفلسفة وعلم النفس فضلا على روح التجديد السائدة في مفاهيم الأدب قد فرضت مقاييس لفظية جديدة وأسماء مبتكرة استمد قسم منها من علوم الاتصال الحديثة ومن مفاهيم الرسائل الإعلامية ...)

لذلك يبدو لنا من الطبيعي جدًا أن يرتدَّ النزوع الاصطلاحي شبيهاً بالإعذار المسبَّق الذي يمهد لتخفيف وقع الصدمة الفكرية التأويلية على القارئ العربي ، وليس ذلك وارداً إلا لكون المبدع الأدبي أو الناقد الأدبي يكون أكثر تحسُّساً للفراق المعرفي الذي بات يفصل المتلقِّي عن مرجعيات القراءة النقدية المعاصرة أو الحديثة.

يبدو مفهوم المصطلح النقدي من الوهلة الأولى متصلاً بصيغة ما من صيغ تسمية القضايا النقدية والفكرية ، فهو باعتباره منصبا على الصيغ الإفرادية أو الصيغ الثنائية التوصيفية من مثل : الصورة الأدبية أو الصورة الشعرية أو الصورة الفنية أو الصورة البلاغية ، إنما هي في مجموعها ذات مناطات اصطلاحية بالغة التقارب إن لم نقل التداخل .

والنقاد من غير المحترفين أي غير الذين أشربوا حسَّ التَّمهَّر في إجراء تقاليد التَّداول النقدي العلمي الموضوعي غالباً ما يخلطون في استعمال الممارسة النقدية التجريبية خاصّة في حقول المتابعات النقدية الإنشائية أو لنقل التحليلية أي تلك الممارسات النقدية الصحافية ذات الأبعاد القرائية الفورية لكل منتوج أدبي إبداعيّ راهن بين القراءة والحكم النقديّ على اعتبار أنَّ لكلا المؤدَّيين الثقافيّين منهاجاً يحتمُّ على متبني أحدهما سلوكاً تفكيرياً يتوافق في

غاياته التفكيرية والنظرية بكلّ المستتبعات الإجرائية التي يقتضيها المنهاج الواحد من المنهاجين النقيدين ، فالسياق النقدي القرآني التحليلي غالبا ما يكتفي صاحبه بتحليل الأفكار الأدبية ومحاولة تقديمها بشيء من التوضيح الذي يشبه التفسير أو الشرح ، فهو ، تبعا لتلك الرؤية التفكيرية ، منهاج نقدي يسلك سبيلا مسطحة تشتغل على إثارة المسموع والظاهر والبيّن والواضح وأمّا الشقّ الثاني من المسعيين النقيدين المذكورين فغايته تتجاوز تلك الحدود التي ينتهي إليها المنهاج المبسّط المذكور إلى غايات نظرية وتفكيرية تحاول أن ترسخ التفكير النقدي وتعمّقه بشيء من التركيز والتّنظير وذلك ما لا يبتغى بغير نهج سبل التفكير النقدي التّأطيري أي ذلك النّظر النقدي الذي يتوسّل بتوظيف النّظريات النقدية المحكمة التي تتبنّى السياق المدرسي العالمي وهي المشهورة بمقولة المذاهب النقدية.

ولا يمكن تصور بحال من الأحوال أن يتواجد النّظر النقدي الحديث بعيدا عن بذل الأسباب الإبداعية الراعية لذلك والدّاعمة له.

وإنّ السياقات النقدية الإجرائية التكوينية غالبا ما تنهض في النقد الأدبي العربي الحديث من خلال تعاطي المبدعين ذواتهم للمتابعات النقدية التفهّمية على شاكلة ما يؤدّيه إلياس خوري⁹¹ في كتاب "الذاكرة المفقودة" ، فهو يجري في كثير من فصوله وفق الانطباعات النقدية الصحافية التي ترسم أبعادها القرآنية ضمن مشروع فكري لا يأخذ بعين الاعتبار الأطر النظامية الكبرى من مثل تلك التي ترتبط بمشروع الدّرس النقدي الجامعي الأكاديمي.

⁹¹: ينظر ، الذاكرة المفقودة ، دراسات نقدية ، ط:1 ، مؤسسة الأبحاث العربية 1982 ، ص: 77

والمتمم لتجليات القيمة الأدبية سواء أكانت في صورتها الإبداعية الأولية أي الإنشائية أم في صورتها النقدية الناضجة الراسخة فإنّ في إمكانه إدراك الغايات الدلالية على اختلاف مستويات نضجها المعرفي حيث تبدو متحوّلة المعايير والقيم إذ ليس النصّ الأدبيّ في منطوقه ودلالته إلّا مرتبة من مراتب التّجليّ اللّغويّ عموماً ، والفارق العميق بين منطلقات النّظر هو أنّ النقد الأدبيّ في تصوّراته المختلفة لا يعني بالمفهوم النّصيّ إلّا من حيث هو صورة للمادّة الأدبية أمّا غاياته من الفحص والنّظر فتتنزّل على مراتب أولها المضمون الدّلاليّ في النّصّ .

سنعول منذ البداية خلال بحث إشكالية المصطلح في النقد العربيّ المعاصر أو بالأحرى الحدائيّ تجاوزاً للاعتبارات التّحفظية التي ستصادفنا لدى التعامل مع موضوع البحث أن نركّز على مبدأ التّحليل التاريخي للظاهرة النقدية في الأدب العربيّ بدءاً من القديم بالغين بعد ذلك كلّ أسباب التّحوّل المنهجي والموضوعي والفلسفي التي استفادتها التّجربة النقدية العربية ، كيفما صادف للتفاعل الثقافي العربيّ أن خالط أو تأثر .

ويبدو لنا منذ الوهلة الأولى أنّ الوظائف الأدبية النقدية مترتبة وفق المتتالية التالية حيث يأتي إبداع الخطاب الأدبيّ أولياً يليه الفعل الثقافيّ النقديّ وبالتّحديد الممارسة القرائية والتّحليلية للمنتوج الأدبيّ ثمّ يلي ذينك المبدئين مبدأ الإجراء الاصطلاحيّ أو التركيبيّ ، وبناء على هذا التّصوّر في ترتيب الفعاليات النقدية مثلاً هو متعارف عليها فإنّ لثقافة الاصطلاح منزعاً تلخيصياً فلسفياً شبيه بالمقاصد الأسطورية التركيبية ومشاكلاً في الآن ذاته لمبدأ التفكير

الحكمي باعتبار الثقافة الاصطلاحية قائمة على تشبّع تجريبي غالب على ما سواه من الاعتبارات الثقافية الأخرى.

يبدو لنا لفظ الاصطلاح قديم التّجلي ، عريق الهجس ، غزير التّوارد بين أهل كلّ زمان وهو وإن عدّ من معارف المعاصرة والحدّاثه فهو لائط بأصول مناهج التّفكير الإنساني وهو بذلك متّصل بطبيعة عمل العقل لدى سعيه إلى وعي الأفكار والمعارف بسمي ظواهرها تعلّما لأصولها الدّلالية ، وليس من شيء اضطرّه إلى ذلك مثلما اضطره الإجراء القياسي فحسبه أن يتساند إلى قواعد المعرفة يتّخذ منها مناطات قياسية تعينه على ضبط الأحكام ولإصابة شروط التّقويم بالعودة إلى أصول الدّلالات والمعاني والأفكار ، لذلك يكون من الأخرى بنا القول :إنّ الإجراء الاصطلاحي ينبني على استعداد نفسي وعقلي مركّزة شروطه في طبيعة النّشاط المعرفي الإنساني فليس يقوى بعد ذلك كلّ فكر سويّ على الإخلال بتلك القاعدة.

وإذا ما أردنا تجدّر تاريخ حضوره المنهجي ارتدّدنا بموضوعه إلى بداية النّهضة العلمية المنهجية التي أثرها الدّرس الفقهي في اعتبارات الدّراسة الأدبية وخاصّة منها النّقديّة ، حيث كان لزاما على التّفكير الدّيني الشّرعيّ أن يتبنّى منهج الإجماع الفكريّ من أجل تحديد القيمة الوظيفية المادية والمعنوية لمسألة اجتماعية أو دينية أو نفسية ما، فكان أهل ذلك الاختصاص يلجأون إلى تبني الأحكام الشّرعية المضبوطة التي تأخذ بمرور الأيام طابع الاسمية الاصطلاحية.

وواضح كذلك من جهة اعتبارات أخرى أنّ المصطلح على العموم وارد من جهة التّأثيرات الحضارية المعرفية التي أفرزتها التّرجمة من الثقافة

اليونانية إلى الثقافة العربية الإسلامية فقد صادفنا في هذا المضمار كثيرا من العلماء العرب المسلمين يستفيدون من المناهج الفلسفية للمنطق اليوناني في تفهم ظاهرة الثقافية العربية الإسلامية من مثل الطباعي ، والصناعي ، والاصطلاحي⁹² .

ومن جهة أخرى فإن علم الاصطلاح فكر ناشئة جذوره التكوينية الأولى انطلاقا من علم الصرف العربي الذي هو علم يختص بدراسة إيقاع البنية اللفظية الذي ينتظم الاستعمالات اللسانية المبررة للغة العربية ، فالمفردات تتفاوت في مستويات تشقيق فروعها بحسب الإمكانات الصوتية والمخرجية المؤلف لجذر المادة اللغوية .

وقد يكون من الضروري والملح والمنهجي التعرّيج على استيفاء حقيقة المعطيات الثقافية التي استنبت فيها تعاطي الاصطلاح النقدي ، فنقول : إنّ من البديهي لدينا أن نرى أنّ التجربة الإبداعية الإنشائية سابقة للممارسة النقدية من الوجهة المنطقية الإحصائية فقد اهتدت النفس البشرية إلى تعاطي الإخبار والتصوير والانطباع قبل أن تحوجها صورة الوعي إلى الاهتمام إلى تدبّر المقاصد والوسائل والغايات المكتنفة لتلك الممارسة الأدبية الأولية ، وهذا يتوافق بالطبع والغريزة مع كون الحسنّ أسبق في الوجود من العقل فالمحسوسات أولى من المعقولات ، بل لعلّ الفائدة المجتناة من كلّ هذا الجدل أنّ العقل يعتاش على تجارب الحسنّ عبر نبواته وإصاباته ، فالعقل يقتفي أثر

⁹² : ينظر ، أبو حيان التّوحّيدي ، الامتاع والمؤانسة ، ج 1 ، علي الزين أحمد أمين ، دار مكتبة الحياة بيروت لبنان ، ص 9

التجريب الحسّي يسايره ويراكبه ويتخيّر من التجارب الحياتية ما نجع منها وما صار قابلا للمعاودة والتنميط والتكرار .

والسياق التفكيرى السابق قائد لنا إلى أن نقول : إنّ التجربة الحسية في الممارسة الأدبية هي الأسبق والأولى في الممارسة والوعي ، ولهذا نعتبر النقد الاصطلاحي شبيها بالحياة الثانية للممارسة الأدبية ، أي عبر ذلك المستوى التفكيرى الذي يستطيع فيه الأديب وعي الأدوات وإحصاء المؤدّيات ، حتّى يكون ذلك الإلمام وسيلة ناجعة لإحصاء مقدّرات الظاهرة الأدبية التي نعتبر مزاولة النقد الاصطلاحي أحد أبرز وجوها النظرية والتطبيقية معا.

ويبدو من الواضح للمتفكّر في موضوع الاصطلاح النقدي أنّ كلّ نزوع اصطلاحي هو في ظاهره توجّه معرفي لا يصيب غاية الخطاب الأدبيّ أو نصّه، لأنّ في طبيعة اشتغال المصطلح على التركيز الفكرى مفض بالضرورة إلى تفلّت العيّنات النقدية المصطلح عليها من قبضة الدلالة الاصطلاحية ، لذلك ترى بعض الاصطلاحيين من نقاد الأدب العربى الحديث والمعاصر يبنون غاياتهم النظرية على مقدّرات فكرية عامّة تحاول أن ترقى إلى ما فوق الوظيفة النقدية التطبيقية ولنا في الاصطلاح الأدونيسى المهيمن : الثابت والمتحوّل خير أنموذج لذلك النزوع النقدي الاصطلاحي .

ويبدو لنا واضحا منذ الوهلة الأولى أنّ لأدونيس في الاهتداء إلى تلك الفاعلية الاصطلاحية صلة سواء أبدت لنا صريحة أم خفية بالمقروءات النقدية الغربية ومن ثمة فإنّ للثقافة الترجمية أثرا بالغيا في إملاء تلك الهوية النقدية ، ويكفينا قناعة في استيعاب هذا المبرّر الوظيفي أنّ معظم ثقافة أدونيس على أحمد سعيد مستوحاة من حياته الشبيهة بالاستشراق دون أن نتعمّد من حكمنا

هذا الحط من القيمة الثقافية والفلسفية التي يترتب عليها هذا الناقد المستحوذ على مكانة الريادة والتجريب النظري في حقل الدراسات الأدبية العربية المعاصرة وعلى الأخص منها الحداثية.

إن أزمة المصطلح في النقد العربي المعاصر أو بالأحرى إشكالية الانضباط العلمي والمعرفي وارد من جهة الأزمات اللاحقة بتلك الوظائف والأدوات المعرفية الموصلة لأسباب فيما بينها حيث (لا يستوي الإجماع الإنساني إلا باللغة ولا يستقيم بقاء اللغة إلا بتجدد ألفاظها)⁹³.

وأن أزمة المصطلح النقدي أو إشكاله مترتب على أبعاد تأزمية أو إشكالية أخرى تتماهى وتتجدد التجربة الأدبية في عمومها، وبأصدق تعبير فإن الإشكال منبعث في صميمه من أزمة حضارية روحية متفاقمة أسبابها كتب لها أن تصيب مجالات الحياة العربية الواسعة من سياسة واقتصاد وثقافة واجتماع بما لا يدع شكاً في تأثر الأبعاد الحيوية الأخرى بتلك الأعراض المرضية المذكورة ، وإن لسلسلة الانقطاعات والتواصلات في سياق تاريخ الحضارة العربية الإسلامية من نهوض وسقوط وازدهار وخمول صلة بتلك الفاعلية الثقافية المتقدمة حيث يمكننا توصيف تلك المؤثرات بالحساسة للغاية وأن أي اختلال أو ارتباك في شروط سيرورة التواصل الوظيفي مفض بالضرورة بها على التفكك والتشتت والاندثار ، وإلا فبأي من الأسباب نفسر انقطاع حداث الأدب العربي أو معاصرته عن ذلك الازدهار الأدبي والنقدي الاصطلاحي الذي كانت تحتفل به العصور الأدبية العربية وعلى الأخص من ذلك إبان العصر العباسي؟ فالذي يفلي آثار الجاحظ وعبد القاهر الجرجاني وكثير من

⁹³ د. عبد السلام المسدي ، المصطلح النقدي ، ص: 7

علماء الفلاسفة المسلمين يستطيع أن يلمس بوضوح معالم الثراء النقدي بما فيه غناء الدلالة الاصطلاحية لتتقطع أسباب تواصلها ويفضي بها النسيان إلى هلاوتي الصدمت والنسيان.

وإذا ما قلبنا دلالة المصطلح النقدي في عمقها الدلالي ألفيناها متصلة اتصالاً متيناً بالتسمية ، وأي تسمية ؟ إنها التسمية التي تحاول تحديد فضاء دلالي والتي نجاعتها مرهونة بمدى اختصاص تلك الصيغة الاصطلاحية بترسيم حدود التداول النظري والتطبيقي المعلم بتعريفات فكرية وفلسفية من اللائق بها أن تحافظ على خصوصية لأن بفضل ثباتها يحافظ المصطلح على خصوصية هويته النقدية.

ولعل من البدهي القول: إن الإجراء النقدي الاصطلاحي كان مبعثه الأولي مناسباً ومزامناً لتيار النقد المدرسي ، باعتباره قائماً على موثيق وتفهمات جماعية تصدر في أشكال التزامات مبدئية متصلة غاياتها التطبيقية بقناعات فلسفية هي التي تصدر عنها تلك الجماعة أو المدرسة تحقيقاً لموقف فلسفي أو جمالي أو عقدي معين ، وقد كان لفرويد ومدرسة الشكلايين الروس، والمدرسة البنيوية جهود ظاهرة في توثيق المناهج النقدية الاصطلاحية التي من شدة التزامها صارت تصدر في شكل التزام مبدئي يستمد مرجعياته الفلسفية من قناعات واقعية أملت لها إفرازات الواقعين الاجتماعي والسياسي لمجتمعات ما بعد الحرب العالمية الثانية ، والتزاماً بهذه الهوية المعرفية لكل إجراء اصطلاحى نرى أن النقد العالمى أو الإنسانى الحديث ما يزال يسعى في كثير من إجراءاته العملية على الصيغة التعريفية التي ستظل تحاول توفير المصادقية اللازمة للتفكير المصطلحي ، لذلك وبالرغم من ترعب

بعض المناهج النقدية على تجارب بالغة الرّسوخ فإنّ منهاجاً نقدياً من مثل المنهج السيميائي سيظلّ محفوفاً بالارتياب والتشكّك والمخالجة لا شيء إلاّ لكونه يصدر عن فلسفة إقناعية ستظلّ مهما تجذر فكرها في النقد الأدبيّ العربيّ المعاصر أو الحديث متّصلة بثقافة التجاوز أو الغموض أو الاستباق المخلّ بالتّوازن المعرفيّ الملائم بين المعقول واللامعقول ، ولنا أكثر من برهان على هذه الحقيقة التي تتجدرّ التجارب النقدية العربية وعلى سبيل المثال ففي كتاب أنور المرتجى النقديّ "سيميائية النّص الأدبيّ" الذي يأتي ، بالقياس إلى قدم المنهج السيميائي لدى الغرب أو تاريخ تواجده الفعلي أو العمليّ في الثقافة الترجمية ، بعد حصول القناعات الإجراءات المترتبة هي الأخرى على مراحل طويلة من الممارسات النقدية النظرية والتّطبيقية سعى النّاقد إلى بسط سياق تعريفه على النقد السيميائي وهو لا يشذ في ذلك عن باقي النّقاد العرب المعاصرين حيث التزم مبدئياً بتقديم الهوية الفلسفية والإجرائية للنقد السيميائي فقال : (إنّ السيميائية هي العلم الذي يدرس الدلائل ..)⁹⁴

ولا يخفى علينا ما يشتمل عليه هذا الإعلان الأوّلي الاستباقي لتعريف المصطلح ففي نظرنا أنّ كلّ ناقد عربيّ لا يخوض في علم الاصطلاح إلاّ وهو يشعر بتأزم عميق حتّى يجعلنا ذلك الإشكال نفكّر حقيقة بأنّ المصطلح النقدي بعد أن يقوم في النقد الغربيّ يرتدّ في ميدان النقد العربيّ ليتعرضّ بالطّبيعة إلى مراهنات مبدئية تفصح عن ضرورة خضوع كلّ المعارف الفلسفية والأدبية لإجراء تأسيسيّ هو الذي سيمنح الدّلالة النقدية الاصطلاحية بعدها المحليّ على اعتبار أنّ الثقافة الإنسانية مهما توحدت أسبابها العلمية فهي تحتاج دائماً

⁹⁴ أنور المرتجى ، سيميائية النّص الأدبيّ إفريقيا الشذوذ ، الدّار البيضاء ، ص:3

للمسوّغات الخاصّة بكلّ تداولٍ تفريعي لها ، وتوكيدا لسلامة هذا الحسن أو التّحسّس النّشوّي نصادف كلّ المشاريع النّقدية الإصطلاحية تعوّل مبدئيا على إعادة النّظر في مقوّمات التّأصيل المتبني لقيام معرفة نقدية ما ، (...فالسيميوتيقا بهذا المفهوم قريبة من المنطق الصّوري...) ⁹⁵ ، بل لا يستبعد المؤصّلون لهوية المنطلق الاصطلاحي أن يعثروا على ما يشاكل مصطلح السيميائية لدى أفلاطون ⁹⁶ .

وإنّنا لا نستغرب هذه الرّجوعية أو الارتداد التّبريريّ بالتعلّق بالأصول الغابرة للمعرفة الإنسانية لأنّ من ديدن المعرفة الإنسانية أن تبقى إنسانية متماهية تعرّضها مواصفاتها العلمية لتوكيد سياقها التّجريبي الافتراضي ، لذلك يستوجب علينا إنصاف موضوع الاصطلاح النّقديّ بالقول : إنّ الباحثين يخلطون عبثا بين العلمية الموضوعية والعلمية الأدبية فالأولى من مهامّها أن تبقى محافظة على سياقها الإجرائي الأوّلي الذي تصدّقه القاعدة أو الصّيغة ، بينما ترتدّ العلمية أو الموضوعية الأدبية إلى تكريس مبدأ المراوحة في حيّز الدّلالة الواحدة وذلك يكون عن طريق تجريب الخروج المقصود عن القاعدة إلى ما يشاكلها، وانطلاقا من هذا الاعتبار الراسخ في تصديق مدى ارتباط مصطلح النقد الأدبي بهويته الإبداعية لا العلمية فإنّ ممّا ينبغي الاتّصاف به في حيّز الدّلالة النّقدية هو عدم التّعوّل في ادّعاء الموضوعية المفرطة حيث يستحقّ كلّ إجراء تفهّمي إلى المحافظة ضمن الدّراسة النّقدية على هوامش دلالية مراوحة مرنة تحفظ لأدبية الخطاب اللّغوي فضاء للتّنفّس والمغايرة ،

⁹⁵ أنور المرتجى ، سيميائية النّصّ الأدبيّ إفريقيا الشذوذ ، الدّار البيضاء ، ص: 3

⁹⁶ : ينظر ، المرجع نفسه ، ص: 3

لذلك فإننا نعتبر التلطف في تناول درس النقد الأدبي من المحايثات الإجرائية التي تضمن للوظيفة النقدية القرائية مصداقيتها الإبداعية.

لعلّ الذي يجعل الحاجة إلى الاصطلاح ماسة في حيّز ممارسة النقد الأدبي ، نقد الشعر أو نقد النثر أنّ كلا الاعتبارين ، اعتبار النقد واعتبار الاصطلاح صادر عن وجهة علمية تركيزية تفضي بالضرورة إلى جنوح التفكير النقدي إلى طبيعة اختصاص المعرفة في كلا الحقلين متلائمة متناغمة ، وتتقوى هذه الاعتبارات المنهجية إلى أن تفضي إلى ما يمكن استخلاصه أنّ الوظيفة النقدية غالبا ما تجانس طبيعة الإبداع الأدبي ذاته فتتبنى على الهجس والتّحدّس الدّلالة الظنية فتكون الحاجة إلى وظيفة التركيز الاصطلاحي ماسة لأن تحفظ للوظيفة النقدية مرجعيتها العلمية المغايرة لطبيعة التفكير البلاغيّ .

2- للتأولم الدّالالي بين اللّغة والمصطلح النقديّ :

لاشكّ في أنّ كلّاً من اللّغة في جميع أوجه نشاطها المعرفيّ تعاني ذات المآزق الدّالالية والمنهاجية التي يعانيها علم الاصطلاح ، وعلى الأخصّ علم اصطلاح النقد الأدبيّ باعتبارهما صادرين عن حسّ اجتماعي ونفسي واحد ، وأنّهما معا ينتميان للمشروع الثقافي العربيّ المتخبّط في أتون التمزّقات الروحية والمعرفية العميقة الآثار ، ولعلّ أهمّ نقيصة منتجة لأزمة النقد والاصطلاح النقديّ هي أزمة الإجماع الثقافي فالثقافة العربية الإسلامية في كثير من تجلياتها التراثية والحداثيّة ما تزال تعاني أزمة الإجماع المدرسي أو الميثاق السياسي الذي يحفظ لمتعاطيها سبيل الاطمئنان إلى ما هو خائض فيه من مستلزمات التجدّد والإبداع ، فالعربيّ اليوم تنتابه الرؤى وتتجاذبه المسالك التفكيرية دون أن يتمتّع بحرية الانفعال الفطريّ الإيجابي حيال تلك المسائل التي تشغل باله فالقرار السياسي هو عمدة المسالك الأدبية والفكرية في مشاريع الثقافة العربية حيث يتحدّم على المفكّر الفرد الخضوع الأعمى لمتطلبات القرار السياسيّ حيث يودّي إشكال افتقاد حرية الانطباع إلى ضياع فورة الابداع وتشتّت الطاقات التفكيرية المنتجة للظاهرة الإبداعية ، وبناءاً على هذه المعطيات يتّضح لنا أنّ المصطلح في معظم تجلياته الثقافية سيظلّ مرافقاً لحياة اللّغة يضعف بضعفها ويقوى بقوّتها ، وإذا كان للمصطلح النقدي نفس طبيعة النّزوع إلى التّسمية على غرار الموجودات والمولودات فإنّ من خصائص الملاءمة بين الصيغة الاسمية وكون الشيء المسمّى أن يلتحما في جميع المفاهيم والدّلالات الموضوعية أو غير الموضوعية استيفاء لمجمل المكوّنات العميقة التي تقف وراء توقيع الاسمية المتعلّقة بقضية نقدية ما ، والتي في

الغالب والأرجح أنّ الحسنّ أو التّصوّر يهجم عليها في مظانّها العميقة دفعة واحدة بدون تحفّظ أو تذبذب من شأنه أن يكفل للنّزوع الاسمي أو الاصطلاحي المناسبة الدّلالية المستوعبة للأبعاد الفكرية العميقة أي تلك التّصوّرات التي تتجذر الفكرة النقدية ، لذلك فإنّ العامل الرابط بين الوظيفة الاصطلاحية والوظيفة النقدية منبعا استراتيجيّة التّصوّر التي تصدر عنها الفكرة النقدية وعلى أبلغ فهم وأوضح تقدير فإنّ الدّلالة اللّغوية لجذر المصطلح تحمل مرونة تتّسع لتشكّل المصطلح⁹⁷ ، بالقدر الذي ندعوه تنقّس المصطلح.

وانطلاقا من هذا التّفهم الأنف المورد يبدو لنا أنّ من سمات نجاعة المصطلح أن يقوم على المرونة والمطاوعة التي تكفل للفكرة النقدية سيرورتها التّحوّلية بما يضمن لها النماء والتّفنّق والاكتمال الدّلالي.

وعلى أسلم تقدير حسب ما يتراءى لنا بعد تمعّن الوظائف التّفكيرية والدّلالية التي يمكن لمصطلح النقد الأدبي أن يسديه للتّجربة النقدية فإنّ الاعتناء بتدقيق الصيغة الاصطلاحية مرتبط بالضرورة بالاعتناء بتهديب لغة الأدب والاستعمال النقدي معا ، حيث تتوافر كلّ لغة من لغات الأمم على مرجعيات نفسية أو عقلية أو اجتماعية تجتمع تلك الجهات كلّها من أجل إرساء منهاج استعمال لغويّ معيّن وبصورة أكثر وضوحا ودقّة فإنّ كلّ لغة من اللّغات الإنسانيّة يتجاذبها الاستعمالان : الاستعمال التراثي التقليدي ، والاستعمال الحدائي التّجديدي ، وليس شدّة التّوازن بين الغائيتين بالأمر الهين فالعقول والنّفوس غالبا ما تقع ضحية ثورة الأجيال وتطاحناتها وتتفاقم تلك الوجهة وتتقوى منتجة ضروبا من التقاطعات والتمزّقات الفلسفية والثقافية

⁹⁷ : د. رجاء عيد ، المصطلح في التراث النقدي ، ص: 141

والأدبية ، ثم تفضي تلك الخلافات إلى تأزم في الاستعمال اللغوي سواء أكان الأمر بالنسبة للغة الإبداع الأدبي أم لغة الاستعمال التفكير النقدي ، وأخرى بالثقافات الأدبية ممن مثل الثقافة العربية أن تسترشد بمقوماتها الإجماعية فتهرع إلى مجامعها اللغوية والعلمية ، أو إلى مؤسساتها البحثية باعتبارها مرجعيات ثقافية يعتدّ بها في التغلب على الأزمات والإشكالات التي تشكّل ظاهرة ثقافية أو نقدية أو أدبية على العموم ، والأدباء العرب المعاصرين والحداثيين ما فتئوا يشيرون إلى هذا العبء المستفحل في عقولهم حيث بات جديرا بكل واحد منهم أن يتساءل: (كيف يفرز المجتمع المعايير الأدبية؟...) ⁹⁸ ، حيث يتم في ضوء تلك الرؤية المعيارية ابتدال الدلالات والمصطلحات ، وتدقيق المفاهيم القابضة على الظاهرة الأدبية والنقدية معا.

ولا ضير بعد كلّ ما سلف تداوله أن نشير إلى أهمية عامل النضج الفكري والموضوعي القائمين بدورهما على النضج الاجتماعي الذي بحصوله تتوافر الأسباب والغايات الانفعالية الداعية والمبررة لميلاد الظاهرة النقدية والتي لاشك في أنها مشاكلة في كثير من تجلياتها للظاهرة الاصطلاحية ومشتمة عليها في الآن نفسه ، فالاستقرار في الفكرة واعتمادها والاشتغال على إجراءاتها التطبيقية هي من المسعفات العملية التي تفضي إلى تبلور الرؤية والرؤيا معا. ⁹⁹

وحتّى وإن ارتأى النقاد في المفاهيم النقدية الاصطلاحية البالغة الأهمية أي المحورية منها على أنّها تتعدّى المعنى اللغوي الضيق ، ولعلنا لا نبالغ أنّ من رحمة المصطلح أن يعمل على المحافظة على قابلية تنفس الخطاب حيث يبقى مسكونا بقابلية استيعاب المستجدّات التصورية الطارئة مثلما يبقى

⁹⁸ توفيق الزيّدي ، مفهوم الأدبية في التراث النقدي ، ص: 4
⁹⁹ توفيق الزيّدي ، مفهوم الأدبية في التراث النقدي ، ص: 6/5/4.

مجالات النفس المبدعة متحقزة أبداً إلى ريادة المستطرف ، ورؤية تتحدّس كلّ جديد.

ووفق ما اجتمع لديّ من قناعة بعد استقراء بعض المقولات النقدية المتّصلة مواضيعها بمسألة إشكال المصطلح النقدي في النقد الأدبي العربي المعاصر فقد تبين لنا أنّ الغربيين الذين دأبنا على قراءة نتاجاتهم النقدية من مثل ترفيتان تودوروف ، ونعوم تشومسكي ، وجاك دريدا ، يتشجّعون كثيراً في الهجوم على تسمية الظاهرة الأدبية خلافاً لما نلاحظه لدى النقاد العرب فهم يتحامون الظاهرة بالتقليب والتدوير والشروح والتفاسير قبل أي إجراء اصطلاحي وكأنهم بذلك التّهذيب يقرون بما يقبّع في قرارة أنفسهم بأنهم يتطفّلون على ارتياد هذه المحفل الفكرية ، وتأتي نقودهم مشبعة بالاعتذارات والتوسّلات المبرّرة لتلك البرودة وذلك الفتور الغالب على مواقفهم النقدية ، والنقاد العرب الرياديون لا يقاربون نظرية قرآنية غربية إلا بالتبجيل والتّزويد يحدوهم في مواقفهم تلك التناول الإشكالي للظواهر.¹⁰⁰

3- الهوية الاصطلاحية للتقديمات النقدية والتّعريف:

لقد استرعى انتباهنا تقليد شائع في مطالع الكتب النقدية أو ثناياها مفاده أن يعمد المؤلف إلى الاختصاص ببذل الجهود التعريفية أو التقديمية تقوم من الوجهة المعرفية مقام الوظيفة الاصطلاحية ، غير أنّ لهذا المسلك النقدي طبيعة تغاير طبيعة المصطلح ، ففي حين يسعى اعتماد المصطلح سبيلاً إلى التركيز والتكديس والحوصلة الاسمية للفكرة أو القضية ، ينحو السياق

¹⁰⁰ : ينظر ، مقدّمة شكري المبخوت ، ورجاء بن سلامة لكتاب: تزيّطان طودوروف ، الشّعريّة ، تر: شكري المبخوت ، رجاء بن سلامة ، دار توبقال للنشر ، المغرب .

التعريفي أو التقديمي إلى إقامة التوضيح المستفيض بعض الشيء ، وهو وإن يكن لا يغطي المجالات الوظيفية للظاهرة النقدية أو الأدبية كلها إلا أنهما أي التقديم والتعريف يسعيان إلى تذليل المعارف القريبة جدًا من حيز استعمال الفكرة النقدية ذاتها ، ولقد استرعى انتباهنا ، لدى تدبر مدى الصلة الرابطة بين نزوع الاصطلاح وبين نزوعي التعريف والتقديم ، عنوان وقع مدخلا للمقام الأول أي رقم واحد من مبحث مفهوم الشعرية لدى تزفيطان طودوروف¹⁰¹ تحدت غاية ذلك المدخل من خلال وضعه عنوانا تقديميا هو: تعريف الشعرية ، سعى فيه الباحث إلى مداخلة شيء مما يشبه المعرفة الاصطلاحية ، حيث قال : ينبغي قبل كل شيء التمييز بين موقفين ...¹⁰² .

ويعتبر قوله قبل كل شيء إعلانا واضحا عن معالجة نقدية هي أخص من تلك الخصوصيات النقدية الإجرائية التي اعتاد النقاد اعتمادها سبيلا لمداخلة التحليلات النقدية الأكثر تفصيلا ، وقد كان حريّا بالمدخل ذي النزوع التعريفي المركّز أن يراهن على استعمال العبارات والمفردات التي تختلّي ظاهرا مناوشة أسرار الخطاب النقدي ، إذ المسألة أو المهمة لا تعدو كونها إجراء تقديميا تعريفيًا، يقوم على الإشارات النقدية التعريفية التي تلمح إلى بعض القضايا الكبرى العامة المركّزة والتي تعتبر الإطار النظري والفكري المهيمن على روح الخطاب النقدي .

¹⁰¹ ينظر ، مقدّمة شكري المبخوت ، ورجاء بن سلامية لكتاب: تزفيطان طودوروف ، الشعرية ،

تر: شكري المبخوت ، رجاء بن سلامة ، دار توبقال للنشر ، المغرب ، ص: 26

¹⁰² : تزفيطان طودوروف ، الشعرية ، تر: شكري المبخوت ، رجاء بن سلامة ، دار توبقال للنشر ، المغرب ص: 26.

وثمة فرق بين ظاهر بين وظيفتي كلّ من الإجراءين النقدي من جهة والإصطلاحي من جهة أخرى من حيث سياق دلّالتيّ كلّ منهما وقد يلتقيان في بعض خصوصيات الثقافة النقدية إلا أنّ المصطلح يأتي حاملاً للإجراءات التركيبية التلخيصية في حين يعمل الإجراء النقدي إلى بسط القضايا الفكرية بسطاً يصيرها قابلة للتفاضل ، وغالباً ما تكون الحقول الإبداعية متوافرة بحسب اختصاص نشاطها التأملي أو التّصوّري قابلة لحمل الإجراء الإصطلاحي أكثر من غيرها إذا فالثراء المعرفي الذي تنبني عليه فاعلية الموضوع الأدبي أو الموضوع النقدي هي المثير الأوّل والمحفّز الغالب على طبيعة استدعاء المسمّيات النقدية الاصطلاحية ، وسيكون من اللازم والضروريّ لكلّ متوجّه هذا التّوجّه وساع في ذات المسعى أن يبادر إلى توضيح المنطلقات والغايات التي تصبو إليها الرؤية النقدية فيميّز بين لغتي كلّ من الأدب من جهة والنقد من جهة أخرى ، وهو الإجراء الذي يعتبر أحد أركان التّأسيس المبدئي¹⁰³ ، وسيستدعي بالضرورة هذا التّوجّه التعريفي في سياق الإجراء النقديّ العامّ إلى أن يبذل النّاقّد قصارى جهده من أجل توضيح الموقف النقدي ذاته والذي ينحو منحى متميّزاً خلاف ما اعتاد النّقاد استعماله لدى ممارسة العملية النقدية العادية حيث يكون (...) أوّل ما يجمل الإلماح إليه ابتداءً هو أنّ خصوصية المعرفة النوعية والتي هي في مجالنا الحالي النقد الأدبي تزدوج مع خصوصية المادّة ذاتها التي هي الأدب (...)¹⁰⁴ .

¹⁰³ : ينظر :د. عبد السلام المسدي ، المصطلح النقديّ ، ص: 18

¹⁰⁴ : ينظر :د. عبد السلام المسدي ، المصطلح النقديّ ، ص: 18.

ومثلما بدا لنا قبل هذا الأوان من سيرورة بحث إشكالية المصطلح في النقد الأدبي العربيّ المعاصر فالتركيز المعرفي القائم على تلخيص جملة من الإجراءات التفكيرية والتطبيقية هي الدافع والمحرّض الأقوى الباعث على استنهاض ثقافة الاصطلاح النقديّ الذي يفترض فيه أن يتلاءم متماشيا مع المشاريع الثقافية العربية كلّها فبقدر توافق الرؤى وتناغم المفاهيم يحصل الانسجام والثلاؤم في إفراز الأسماء الاصطلاحية (نّ المرء في بعض الأحيان يجد نفسه أمام منطقة تداخل في المصطلح باللغة العربية ، ومن ثمّ فإنّ أفضل شيء لإزالة هذا اللبس أو هذا التداخل هو وضع المصطلح الأجنيّ أمامه ، حتّى أمنح القارئ فرصة التمييز الدقيق الذي لم يستطع نقله بدقّة من اللغة الأجنبية إلى اللغة العربية ...) ¹⁰⁵

ويستطيع الذي يتتبّع مسار التحوّلات الفلسفية والفكرية في ثقافة الأدب العربيّ المعاصر أن يلمس عن قرب مدى الاضطراب الذي ظلّ تخيّم علاماته وتنبّذ أماراته على واقع الممارسات الإجرائية الميدانية ، ممّا أوجد ارتباكا واهتزازا بالغين امتدّت آثارهما لتشغل حيّزا معتبرا من الطاقات والجهود الإبداعية العربية التي أوهّاها التناقض وأقعدّها بعيدة عن إدراك حقيقة فلسفة الحداثة الأدبية ، حتّى أدّت تلك الفوضى إلى توليد جملة من المفاهيم المتعدّدة التي لا تستقرّ بالضرورة ضمن مؤدّى تفهّمي واحد ، بل هي تتصارع وتتناقض وتتقاطع وتتداخل فتبتعد عن المفاهيم النقدية المضبوطة .

¹⁰⁵ : خوسيه ماريابوثيلو إيفانكوس ، نظرية اللغة الأدبية ، تر: د. حامد أبو أحمد مكتب غريب ، ص:13

وبالرغم من وعي كثير من الجهود النقدية لبعض مسارات تحولات
الحدث الأدبية العربية خاصة في جانبها الاصطلاحي الفلسفي أو في جانبها
التطبيقي فقد هرع أكثر من ناقد عربي إلى الاشتغال على مخلفات الاضطراب
والتناقض لا يشغلهم شيء مثلما يلهيهم أمر تتبّع الظاهرة النقدية من حيث
منطلقاتها الاصطلاحية لذلك فقد ألفيناهم غلب عليهم الإجراء النقدي المتفهم
لهذا المناخ حتى غلب عليهم منهج نقدي يكاد يكون واحدا متوحدا ضمن
شروط الاشتغال بظاهرة الاصطلاح في النقد الأدبي العربي الحدثي فكان أن
قالوا بتاريخ توظيف مصطلح الحدث¹⁰⁶ ، وقد تحرى هذا التوجّه اتخاذ
الوسائل الإجرائية المناسبة للسياق الفكري في مجال النقد الأدبي العربي ، ما لا
يترك لكائن التفكير والانفصال عن سلسلة الجهود الأدبية والنقدية العربية
القديمة سبيلا إلى الانقطاع عن التجربة العربية الطويلة وقد عبّروا عن هذه
القناعة بمقولات: (كلّ من يحاول أن ينتزع النصوص النقدية من سياقها العام ،
دون ربطها بالنصوص الأخرى المجاورة لها ليقدم مفهوما ما أو رؤية شمولية
لأديب أو مفكر ما يقع في الخطأ ويخونه الإدراك الكلي لمعنى المقولة
المنتزعة...) ¹⁰⁷.

وبحسب ما اجتمع لدينا من اقتناع بعد القراءات المتوالية لـنصوص
والمقولات النقدية الحدثية الفاعلة فقد تبين لنا أن الناقد العربي الحدثي ظلّ
يبحث له عن مسوغ تبريري يتشرنق فيه لدرأ مكاره التبشير بقيم الحدث
الثقافية ومنها ثقافة النقد الأدبي الحدثي فلم يجد أفضل من شرنقة المصطلح

¹⁰⁶ : ينظر: سعيد بن زرقعة ، الحدث في الشعر العربي ، أدونيس نموذجا ، أبحاث للترجمة والنشر

والتوزيع ، بيروت لبنان ، ص: 143

¹⁰⁷ : سعيد بن زرقعة ، الحدث في الشعر العربي ، أدونيس نموذجا ، ص: 143

النقدي سبيلا لامتلاك مبررات المقولات النقدية الحداثيّة ، لذلك فإنّنا مقتنعون بأنّ بعض المستمليات النقدية الحداثيّة كان لها دور التبرير والتّسويغ أكثر من إسهام التفكير والتّثقيف والتّفسير للظاهرة الأدبيّة في طابعها الفنّي أو الجماليّ ، وبناء على هذه القناعة التي تدبو لنا أكثر من مشروعة فإنّ النقد الأدبي العربيّ الاصطلاحي ظلّ يهوّم عبر متاهات التبرير والتّسويغ وقد قذف به هذا التّأزم والإشكال إلى أن يتخلّى عن الوظيفة النقدية النّاصعة ، من حيث جرّه إلى أن يعلق في فكّ شراك الإشكالات الفلسفية والحضارية التي بات القارئ العربيّ يتبنّاها جراء سلسلة الهزائم السياسيّة والاقتصاديّة التي أفرزتها التّجربة الحضارية العربيّة الحديثة ، لذلك فقد ألفينا النقد المدرسي أو الأكاديمي العربيّ يحترس في توظيف السياق الاصطلاحي للظاهرة النقدية أو الأدبية قبل أن يغامر في مداخلة الأدوات النقدية الأخرى ، وعلى سبيل المثال فقد التزم الناقد العربيّ القارئ للمقولات الحداثيّة بأن يتتبع سلسلة التّحوّلات في سياق النقد الأدونيّسي الذي نعترف ضمّنيا بأنّه الأكثر مشاكسة والأقوى فاعليّة في توتير الهاجس الثقافي العربيّ الحديث ، وقد دفعت شدّة الاحتراس إلى بسط أسباب المنهاجية التي يمكن بفضلها مداخلة عوالم أدونيس النقدية الحداثيّة وهو مطلب تنبني عليه المساءلة عن مدى أصالة التفكير النقدي الأدونيّسي وهل ممارسة الحداثة كمصطلح في بداية حياته عن وعي¹⁰⁸ .

والذي يطرح هذه المغايرة أو المراهنة إنّما يبادر إليها انطلاقا من طرح حقيقة التباس الجهود النقدية العربيّة الحداثيّة بذات الجهود الأدبيّة الإبداعية التي

¹⁰⁸ :سعيد بن زرقعة ، الحداثة في الشّعر العربيّ ، أدونيس نموذجا ، أبحاث للترجمة والنّشر والتّوزيع ، بيروت لبنان ، ص:43

أنتجتها فهما أي الإبداع الأدبي والنقد كانا يصدران معا عن قناعة إجرائية وتفكيرية واحدة قوامها الذات الأدونيسية التواقعة إلى كسر رتابة المحافظة ، والارتقاء في أحضان التجديد المتجدد.

وعلى أوثق رؤية وأنصح تقدير فقد ظلّ الفكر النقدي مسلّحاً بكثير من الاحتياط والحذر يحشد في كلّ مناسبة دواعي التبرير والاعتذار ، أو بما يمكن تقديره بترك الفسحة المناسبة للتراجع عن الأفكار والمبادئ التي يلفظها جسم واقع الاجتماع العربيّ ، وعلى سبيل المثال فقد ظلّ عالم الشعر العربيّ هو الحقل التجريبي الأكثر مرونة واحتمالاً للتجريب النقدي الناهض من مصطربات الواقع العربيّ الذي نحسب أنّه ظلّ يستملي مسوغات التقبّل من معطيات الواقع العربيّ الأخرى فقد ظلّ الوعي العربيّ يقيس فيما بين الحقائق ، يقارن ويختزل المعطيات فيتخيّر منها ما هو أقرب إلى الحقيقة ، وقد وجدت الذات المثقفة العربية نفسها أكثر عرضة للاختلال والاحتلال ، فالواقع العربيّ يقف لها بالمرصاد يختبر كلّ الدواعي ويمتحن كلّ المعطيات وهو في كلّ أثناء ذلك يتخذ من المرجعية الشعبية سبيلاً واقعياً لامتحان جدوى المقولات الفكرية والنقدية .

وخلال كلّ هذه الرهانات فقد ظلّ الناقد العربيّ يؤجّل معاينة الواقع متخذاً من الممارسة النقدية سبيلاً وغاية مشاكلة للممارسة الإبداعية الأخرى ، ومن ثمة فقد انجرّ عن هذا التّشاكل بين النقد وبين الكتابة الأدبية رؤية نقدية تجريبية ظلّت تومئ إلى الحقيقة ولا تقوى متجرئة على لمسها عياناً.

لقد ظلّ تفعيل المصطلح النقدي الحداثي مرهوناً بما يصدّقه من القراءات الفلسفية والواقعية التي تعتمد قياس الواقعين السياسي والاقتصادي سبيلاً لتطبيع

الحسّ وترسيخ التجربة ، وقد كان كفيلا بهذه المرحلة أن تطرح رؤيتين هما ممارسة المصطلح أو توظيف المصطلح من حيث اشتغال كلّ غاية من الغايتين على مؤدّى دلاليّ قوامه ترسيخ التجربة النقدية العربية أو تهميشها ، وقد كان لزاما على من يخوض عوالم النقد الأدبي العربيّ الحداثي أن ينشغل بالبحث عن الطاقات النفسية والعقلية والواقعية التي تمده بمشروعية الانفعال بالقيم النقدية الاصطلاحية ، وهل ممارسة الحداثة كمصطلح إلّا تجميع الصيغ الاصطلاحية الجامحة جموع الذات العربية عن تسمية الواقع الذي ظلّ يفتقر إلى دعائم عربية هي التي تمدّ الحسّ الأدبي بمسوّغات التفكير النقدي الحديث ؟ وهذا ممّا يؤكّد أنّ مصطلح الحداثة لم ينتشر إلّا منذ منتصف الستينيات ، وربّما تفاوتت التجارب العربية في بلوغ أسباب الانفعال بالمصطلح النقدي الواحد تبعا لتفاوتها في ترسيخ التجارب واكتساب النضج الفكري المؤهل لذلك .

وبالنظر إلى حدوث النزوع النقدي الانفعالي المنجرّ عن التّوترات الفكرية والنفسية للأدباء العرب فقد تحثّم على السّدوك الثقافي المتموقع في أتون تلك الخلافات أن يتأثر الجوّ العامّ لرقعة التّوترات الأيديولوجية ومن ثمة فقد تولّد تفكير نقدي تبريريّ قائم على بذل المسوّغات واصطناع المبررات التي تقف دائما مدافعة عن الانبثاقات التفكيرية المستجدة ، وقد كان لزاما على الناقد الصّادر عن حسّ هذه المرحلة الأدبية أن ينطبع بما هو مفروض عليه من خارج التجربة الحقيقية للنقد الأدبي العربيّ الحداثي ، وعلى أوثق تقدير فإنّ المغامرة النقدية مثلما تجلّت في الريادة الأدونيسية فقد أوجدت لها دعائم إبداعية تحمل مشروعا المستقبلّي المخترق للرّاهن والمناقض للماضي ، وبناء

على هذا التوجّه الذي غلب طويلا على سيرورة النقد الأدبي العربيّ الحداثي فقد طفق كلّ زاعم يتّخذ من القناعات التراثية حقلًا خصبا للاستقاطات القرائية التي تجتهد من أجل ليّ الأحكام التراثية وتصييرها قابلة لحمل الطروحات الحداثيّة الأكثر ثورية ، وقد كان لزاما على كلّ مسعى نقدي هذه وجهته أن يرتدّ ويتحوّل إلى إبداع حول الإبداع¹⁰⁹ في شكل تواصل دائريّ جدلي قد يغدو في حال التآزم لاجنا إلى امتلاك الطاقات الإعلامية من جرائد ومجالات ومنابر مثلما قامت بذلك مجلات : الطليعة الأدبية العراقية ، والموقف الأدبي السورية ، وكذا الآداب اللبنانيّة بامتياز ، إلى جانب إسهام مجلة شعر التي نشط فصولها الشّاعر المتمرّد (علي أحمد سعيد) أدونيس .

لقد كان لزاما على النّقاد الحداثيين أن يتقنوا لعبة الإصطلاح باعتبارها بوابة الولوج إلى الدّرس النقدي الحداثي ولا سبيل إلى تفاديه ، ولو قرّنا مناظ التحوّلات وثمنائها لألفيناها تلفّ دائرة حول مقتضيات أدبية ونقدية حاسمة لا تكاد تخطئها ألا وهي ، مسألة التّحديث الشعريّ وثمة مستتبعات قوامها دراسة التّشكيل بما يوافق الدّراسات النقدية الإنسانيّة أي تلك التي تضطلع بدراسة الانفعال الفنّي الإنساني وبالضبط فقد تمحور هذا الاهتمام حول مقتضيات الانتقال من القصيدة العربية العمودية إلى قصيدة الشعر الحرّ وبالتّدقيق إلى قصيدة التفعيلة وقد ترتّب على هذا التّحوّل جملة من القناعات الثقافية والجمالية وهو ما أوحى إلى مجمل الدّراسات النقدية الحداثيّة بأن تتمحوّروا وتقدّح حول جملة من المصطلحات النقدية اللأئمة بالموضوع أو بالأحرى بهذا الحقل

¹⁰⁹ ينظر ، مصطفى لطفى اليوسفي ، في بنية الشعر العربيّ المعاصر ، دار سراس للنشر ، 1985 ، ص: 9

النقدي الدلالي الذي كاد يسيطر على ردهة من زمن حركة الحداثة الأدبية العربية غير قصيرة.

4- أثر ثورة المصطلح النقدي في تنمية التفكير النقدي :

تعتبر الثقافة الأدبية الترجمية من أهم الدعامات وأهمها في تنوير التفكير النقدي الأدبي الجديد ، وليس ذلك إلا لكون الثقافة النقدية الأدبية الترجمية قد أمدت واقع الأدب العربي في جانبه الإبداعي والنقدي معا بروح الانفتاح على الثقافة الأدبية الحديثة من حيث دفعت بالباحثين إلى ضرورة الاستفادة من علوم العصر الحديث من علم نفس ، وعلم اجتماع وعلوم بيولوجية وعلوم تجريبية وإحصائية ، ولاشك في أن للأدب الغربي الحديث أو القريب من ذلك صلة كذلك متينة بهذه العوالم التفكيرية ، وليس الأدب العربي المعطر بدعا إذافي هذا الشأن فقد نعتبر مبالغين إذا قلنا بأن فلسفة الحداثة الأدبية قد صارت ، بما لا يدع شكًا للمتفكر ، ضربا من القناعات الفلسفية المدرسية التي تحتم على موالينا أن يختلط في تفكيره وإبداعه بكثير من معالم التفكير الأدبي الإبداعي أو النقدي مع باقي أدباء العالم ، وقد تقوى هذا التوجه وتنمى مستفلا فاضيا خفائه على أدباء العالم والعلم العربي خاصة ، ومن المؤكد بأن النزوع النقدي الاصطلاحي قد صار أحد أهم تلك المعالم الثقافية القوية التي صارت عامل تقريب والتقاء فيما بين مختلف الاسهامات الأدبية والنقدية الحديثة ، ولو تتبعنا آثار التوجه الترجمي العلمي لألفينا هذا المسار أو هذا التوجه لما صار غالبا قد اختط لنفسه المسار التأثيري الأقوي فيما بين التجارب الثقافية الإنسانية ، وقد كان من الواضح والراسخ أن يعمد التفكير النقدي وكذلك الإبداع الأدبي مؤتما

بالتجارب الحضارية والإنسانية الأخرى وكيف لا يكون كذلك وقد صار العالم متشبعاً بقناعات إجرائية جديدة تحت كلها على التعاون والتواصل والتّصاهر فيما بين جميع الثقافات الإنسانية العالمية حيث لم تعد عقدة تعيق أيّ تعاون في ذلك المضمار ، على خلاف تحسّس التجارب الأدبية القديمة أو الكلاسيكية من مزية تأثر التجارب الأدبية الأخرى من حيث كانوا يعتبرون ذلك الإجراء عامل ضعف وتآزم واحتباس في الطاقة الإبداعية، وبحسب تأملنا وتفكرنا في مسار المعالجات التي يقتضيها موضوع صلة النقد الاصطلاحي بفنّ الترجمة وآليات الاقتباس من علوم الآخرين أن صار من المغبط والمريح أن نقد تجارب الآخرين لتخالط تجارب الأمم الأخرى .

وبفضل هذا التفاهم الحضاري فقد غدا توظيف الإجراء الاصطلاحي بمثابة الشهادة التسجيلية التي تحفظ للهوية الإبداعية مصادرها الحضارية بامتياز فالترجمة في أبعد مراميها وأعمق تفاعلاتها (...) مرتبطة بقناعات مختلفة تتوقف على زوايا تسمح بتحديد مكونات الشّكل (...)¹¹⁰.

5- ثورة المصطلحات الشعريّة:

لعلنا لا نبالغ إذا قلنا : إنّ توليد النقد الاصطلاحي قد ظلّ مرتبطاً بمدى توافر المحفّزات الإبداعية المحيلة عليه ، ونحسب بإزاء هذا الإشكال أنّ الممارسة الأدبية بقدر غنائها ستكون كفيلة بإثارة المحفّزات التفكيرية الملقية بالوعي النقديّ الحديث إلى جهة الاضطلاع بتناول المواضيع النقدية النظرية

¹¹⁰ : غيثري سيدي محمد ، الأسس المنهجية لترجمة النصوص الأدبية في ضوء الرؤى اللسانية ، مجلة المترجم ، ع: 01 ، جوان 2001 ، ص: 68

منها والتطبيقية جهة المواضيع الناهضة من حقيقة ذلك الاهتمام ، وبالمناسبة فإنّ في إمكاننا القول: إنّ الكتب الرائدة في بحث النقد الاصطلاحي مثلما بدت لدى الناقد عزّ الدين إسماعيل ظلت تتّصف بالمبادرة النقدية الاجتهادية أي تلك التي تبدو هوامش صفحات كتابتها خالية من الإحالات إلى حدّ مرموق ، وقد تلاءم مع هذه الحقيقة المنهاجية كون الذين عبّئوا بالكتابة في النقد التأسيسي أن يكون من الضّروري بهم التماس الغايات التنظيرية المحيلة على بحث لإشكال المصطلح النقدي الحديث ، وقد ألفينا عزّ الدين إسماعيل يعلن هذا بكلّ وضوح حين عنون بعض فصول كتاباته بالمصطلح الجديد .. عرفانا منه بأنّ المصطلح النقدي هو أثر تداولي قديم غير أنّه صار أحد تقاليد أو شروط ولوج الثقافة النقدية الحديثة ، وقد قدّم الباحث اهتمامه بالمصطلح قائلاً: (اللغة هي الظاهرة الأولى في كلّ عمل فنيّ يستخدم الكلمة أداة للتعبير، هي أول أداة تصادفنا ، وهي النافذة التي من خلالها نطلّ ومن خلالها نتنصّم)¹¹¹.

غير أنّ عزّ الدين إسماعيل حين أحال على موضوع المصطلح الجديد كان لا يعني موضوع المصطلح النقدي بقدر ما عني وأحال على ألفاظ مفتاحية صارت لها صداها في عالم الكتابة الشعرية الحديثة ونقصد بذلك عالم الترميز الأسطوري ، فقد دأب الشعراء المحدثون على توظيف كلمات محورية تحيل بتركيزها الدلالي على تجربة أسطورية بالغة التعقيد ، وافرة الحسّ الفلسفي ، وقد استفحل توارد الشعراء في مضماره حتّى غدت موضة العصر لا يؤبه بمن أهملها.

¹¹¹ : دجّرّ الدين إسماعيل ، الشعر العربيّ المعاصر قضاياها وظواهره الفنية ، ص: 173

وعلى خلاف ما أتى في مضامين المعالجة النقدية والموضوعية لكتابات عز الدين إسماعيل فقد أتت كتاباته مرتكزة على توظيف اصطلاحي ظاهر قوامه أن تحمل عنوانه فصول الكتب النقدية الواقعة في دائرة الاهتمامات النقدية الحديثة على عناوين من مثل : الالتزام والثورية ، أو الرمز والأسطورة ، أو معمارية القصيدة أو النزعة الدرامية أو ظاهرة الحزن وهو في سياق ذلك الاهتمام لا يكاد يفارق ما عرف عن العصر الحديث من سعي دؤوب لتوفير المنهاج والمصطلح النقدي الذي يخدم ذلك التوجّه ويرسّخه ويؤكّده.

لعلّ الذي لا خلاف حوله هو أنّ الإجراء النقديّ الاصطلاحي ظلّ البوّابة الحقيقية لدى أية رغبة في مداخلة الثقافة النقدية الحديثة ، وحتى لو أننا أقررنا بأنّ التراث العربيّ في حيّز اعتبارات النقد الأدبي كان قد وظف المصطلح البلاغي والبديعي مركزاً عليهما باعتبارهما ناشئين عن مطلب نقديّ ضروريّ صار يحضر بالحاح خاصّة فيما يتعلّق بدراسة الفنيات والجماليات الشعريّة فالذّنّاول المنهاجي يدفعنا إلى القول: إنّ استعمال المصطلح النقدي وفق الشّروط الثقافيّة المستجدة قد صار يعوّل عليه في ضوء التجارب الأدبية العربيّة الجديدة ، وبإزاء هذا التّشبع المنهاجي الذي ظلّ يفرض الفكرة والمنهاج بل يتعدّاهما في كثير من الأحيان إلى بثّ الإقناع والاحتفال بكل ما هو وارد من جهة الثقافة الأدبية الحديثة فقد تطوّر نهج النقد الاصطلاحي مفرزاً تقاليد ثقافية وعلمية سواء أكانت نظرية أم تطبيقية صارت هي المغلقة لكلّ نية في ذات التوجّه ، وبالنّظر إلى رسوخ الاعتبارات الثقافيّة العاملة على ترسيخ قيم نقدية بعينها فقد صار من المألوف ذهاب كثير من النقاد والمؤلفين إلى توشيح مساهماتهم النقدية بالملحقات المعجمية التي تعباً بتقديم الجهود

النقدية الاصطلاحية التي كانت محور التأليف أو الدراسة الأكاديمية ، ولقد اهتمنا بدراسة هذا الحسّ الترجمي الاصطلاحي فالفيناها ظاهرة مترسمة غالبية فهي لدى مهدي أسعد عرار متشخصة في توظيف ملحق معجم المصطلحات¹¹² حيث يأخذ هذا الإجراء التكميلي لثقافة الكتاب بعدا منهاجيا يحيل في نهاية الدراسة على ما يعتقد الباحث بأنه سيظلّ يشكّل عائقا معرفيا أمام مطالع الدراسة ، وقد نراه يضطرب مليا في تعريب أو ترجمة بعض دلالات المصطلحات الأجنبية مثلما هو الشأن لدى وقوفه على دلالة affix ، حيث أعطاها بعدا ترجميا يتوسّع لفظيا إلى ما يفوق التقدير اللفظي الخاصّ بدلالة هذا المصطلح في اللغة الفرنسية فقال: إضافة تضاف إلى الكلمة في أيّ موضع منها¹¹³ ، وربما عنى بذلك التّوابع أو الملحقات اللفظية التي كثيرا ما تنشط وظائفها التركيبية في اللغة العربية ، ومثلما يبدو للمطالع للملحقات المعجمية الاصطلاحية التي احتفلت بها كتب النقد الأدبي العربي الحديث فالّتخريج المعرفي أو الثقافي لسلسلة المصطلحات المسرودة يبدو أنّه ينهل من معين الأصول الأجنبية لثقافة النقد الاصطلاحي الغربيّ فلا تبدو الكلمات العربية سوى مجرد ترجمة أمينة لأصل الكلمة المعجمية في دلالاتها الأجنبية ، ولو عمدنا إلى استعراض مجمل الكلمات الاصطلاحية المترجمة لألفيناها منسردة وفق اهتمام بحثي لا يصبّ بالضرورة في خلاصة ثقافة التأليف الذي ينتمي إليه الملحق المعجمي فبالنسبة لمؤلف جدل اللفظ والمعني رأيناها يتماهى إلى جملة من الاستعراضات الاصطلاحية التي تتشخص وفق اهتمام معجمي

¹¹² : جدل اللفظ والمعني ، دراسة في دلالة الكلمة العربية ط1 ، دار وائل للطباعة والنشر عمان الأردن 2002 ص265.

¹¹³ : جدل اللفظ والمعني ، ص: 265

علميّ هو: مجرد تجريدي ، حدث ، مكتسب ، خطاب ، غموض ، شبه الترادف النظرية السلوكية ترادف كامل ، سياق ، سياق الحال ، خلق إبداع ، تطور ، لهجة ، تعبير ، صيغة ، محدّد نحوي ، الدراسة اللغوية التاريخية ، مشترك لفظيّ ، معنى : تعميم معنى تغير المعنى ، تخصيص المعنى ، رقي المعنى ، مجاز اتّساع مجازيّ ... ثمّ تنتقل السلسلة التعريفية لتطال مقامات دلالية أخرى مجانسة للسلسلة التي تسبقها من مثل: فقه اللغة: فونيم ، علم الأصوات اللغوية ، استلجة ، تطور دلالي ، علم الدلالة ، علامة ، حدث كلاميّ ، نبر ، اللأمس ، صورة لفظية ...¹¹⁴.

والحقيقة أنّنا لو استعرضنا جهود القدماء فيما يتعلّق بالقضايا النقدية التي دأب الباحثون على وسمها بالعلمية والأكاديمية والمنهاجية لقلنا: إنّ كلّ معوفاً قديمة لا تخلو من أن تكون قد تركت لنا متنفساً معرفياً يكفل لها حقّ الولوج إلى أفهام الأجيال الجديدة ، وبالرغم من أنّ كلّ قديم كان بالطبيعة جديداً في عصره إلا أنّ الذي يبحث عن الآصرة الروحية أو العقلية بين ما هو قديم وبين ما هو محدث فإنّه لا يعدم أن يقف على كثرة الدلالات والإشارات التي تبرهن على أنّ سياق التفكير البشري أو الإنساني هو واحد وإنّما الأفكار هي التي تتسطح أو تتعمّق بفضل ما يسعها به الواقع من التصديق أو التّكذيب ، والنّقاد على اختلاف مشاربهم التفكيرية والروحية لا شكّ في أنّهم انبروا منذ القديم يطالبون بالجدّة ويحتفلون بقيم الإبداع والتّجديد وليس ذلك إلا لكون النفس البشرية في طبيعتها وجبلتها مفضومة على حبّ الطرافة تستأنس بكلّ مستجدّ ،

¹¹⁴ : ينظر ، جدل اللفظ والمعنى ، دراسة في دلالة الكلمة العربية ، ط: 1 ، دار وائل للطباعة والنشر عمان الأردن ، ص: 267/266/265.

وقد دأبنا خلال بحث المصطلح النقدي على البحث المستمر عن مقومات التفكير النقدي في أصوله العلمية والمنهجية حيث يتبين لنا أنّ النقد الأدبي مهما بولغ في توصيفه بالعلمية واشتط به في تطلّب الغايات التفكيرية الموضوعية فإنّه لا يخلو من أن ينتسب دائما إلى أصوله الانفعالية التي تبين لنا أنّ التفكير النقدي لم يكن في يوم من الأيام سوى سلوك إبداعي كان شبيها بابتداع النصوص وارتجال الخطابات البلاغية، ولذلك فإننا نتصوّر الموضوعية النقدية على أنّها مجانسة للموضوعية الأدبية ولن تبلغ بأي حال من الأحوال يوما موضوعية العلوم الدقيقة لأنّ في بلوغها ذلك الاكتمال الواهم قتلا لجاذبيتها وإجهازا على إيقاع حيويتها التي تجتذب القراء إلى مطالعتها والاحتفال بها (وهذا المنهج العلمي الخالص كان له أثره في مختلف الميادين الثقافية ، لم يلبث أن طبعها بطابعه، وأملى للعقول في البحث والنظر ، فكان دعامة الثقافة الحديثة التي لا نزال نعيش في أعقابها)¹¹⁵ .

لقد كان حسّ التجديد المفعم بالتوق كافيا لأن يستنهض همم كثير من الأدباء والمفكرين العرب ليندفعوا ملتبين كلّ صوت هادف إلى الابتكار والمغايرة ، ونحسب أن حس الثقافة النقدية الاصطلاحية كان يسكن جوهر هذه الروح الجديدة ، وربّما فاق هذا الاهتمام النقدي العميق الواسع جلّ الاهتمامات الأدبية الأخرى على الإطلاق فصار بعض الأعلام يصطنع تلك الشخصية الثقافية والعلمية استئناسا بما صار يقدّمه هذا التوجّه من المكانة والتمكّن .

¹¹⁵ : د. حلمي مرزوق ، تطور النقد والتفكير الأدبي الحديث ، في الربع الأول من القرن العشرين ، ص: 335.

والذي يبحث خصوصيات المرحلة التي سجّلت ثورة الانتقال من التفكير النقدي الأدبي العربي القديم إلى مداخل التحديث النقدي لا يعدم أن يلقي كثيرا من الأصوات الفكرية والمحاولات النقدية سواء أكانت نظرية أم تطبيقية يستطيع أن يتخذ منها علامات أو سمات لتمتين رؤيا التحوّل الحضاري الذي بات يفرض نفسه على كلّ مساهمة نقدية أدبية عربية جديدة، ولقد بادر مصطفى ناصف إلى افتتاح مشروع تحديثي آل فيه على نفسه أن يعيد قراءة المقروء فيصبغه بمحاولة التنظير النقدي الأدبي الجديد نزع خلالها إلى استظهار قوى الإبداع التي يتوافر عليها الحسّ الحضاري العربي ، وقد كان من الطبيعي أن يتصدى مصطفى ناصف إلى محاولة الكشف عن المقدّرات الإبداعية التي توافرت للحسّ الإبداعي العربيّ بالطبيعة وقد سرى ذلك الهاجس على جميع رؤياه البحثية التي تتابعت بحوثها وفق اهتمام محوريّ ظلّ يشكّل هاجسا قويا وقد ركّز التحوّل الجديد مليا على أهمية المبادرة الفردية أو روح المغامرة والمكاشفة فقد أصبح الفرد العربيّ وفق حصول التجارب الحياتية مؤهّلا لأن يغامر في احتمال الرؤية الحضارية المناسبة لموقعه وموقفه معا ..) فالوجدان الفردي لا شيء أسبق منه ، والموجود لا وجود له بمعزل عنه ، إنّه هو الذي يزيد الموجود وجودا ، وهو وحده القادر على الرؤية والتأويل ...¹¹⁶ ، وليس أفضل من روح المبادرة في الانقضااض على معطيات الواقع وتسميتها التسمية الاصطلاحية التي تحدّد فاعليتها في الواقعين المعنوي والماديّ معا ، ونحسب أن الواقع الثقافي العربيّ قد كان في حاجة ماسّة لامتلاك هذه الشجاعة المؤهّلة لريادة الأفكار والاستفادة من كلّ الهواجس

¹¹⁶ : د. مصطفى ناصف ، قراءة ثانية لشعرنا القديم ، ط:2 ، دار الأندلس 1981 ، ص: 19

والتصورات و لعلها الثروة والثورة اللتين أهلتا الحسن العربي لتعالى الواعي مع المسار النقدي الاصطلاحي ، حيث صار الحيز الاصطلاحي يحتل المكانة المعتبرة لدى تعدد التجارب والقراءات النقدية سواء أكانت من النوع المكاشف المغامر أم كانت من طبيعة ذلك النقد الأدبي العربي المدرسي الذي بدأ يترسم ويتدعم وفق الخصائص الثقافية العالمية الإنسانية التي شجعت على مخالطة الفكر العالمية بعد تبني منهاج الثقافة الإنسانية العالمية الذي صار يفرض نفسه وفق المعطيات السياسية والاقتصادية التي صارت بدورها تحتم على الفكر العربي الحديث ضرورة التواشج مع التجارب الإنسانية الأخرى.

6- موالج الدرس النقدي الحداثي:

لا ضير أن كل سياق دراسي نقدي لا بد أن يستند إلى المقومات النظرية التي تصدق وجهته النظرية ، وتمنحه الأبعاد الموضوعية المؤطرة لجدوى طروحاته الفكرية ، وانطلاقا من تحسس هذه المظان المتعلقة بموضوع إشكالية المصطلح في النقد الأدبي العربي المعاصر فإن الذي نراه كفيلا بالمزاولة والمعالجة هو مدى تشبع التفكير النقدي الأدبي الحديث بمعطيات الحداثة ذاتها ، لأننا نعتقد شبه جازمين أن كل نظرية نقدية جادة لا بد من أن توفر لنفسها المسوغ التاريخي والموضوعي الذي هو عامل من عوامل تقوية المنطلق وترسيخ دعاوى طرح المشروع الفكري المتخير من بين جملة من الاهتمامات الفكرية المطروحة على أرض الواقع.

وإذا كان عبد السلام المسدي من أبرز الأعلام النقدية العربية التي اشتغلت على بحث موضوع الكيفيات والأساليب التي تسوغ النزوع إلى

تجريب التفكير الأدبي والنقدي الحداثي فإننا نستيقن أن الحداثة الأدبية العربية ومنها الحداثة النقدية مهما اكتسبت من الخبرة سوف تبقى في حاجة إلى عودة أقلام فرسانها لتكريس التفكير النقدي الحداثي الذي يعاود في كل مناسبة طرح إشكالية الحاجة إلى التفكير الأدبي الجديد ، وكذلك الاهتمام بالمساءلات الفكرية القاضية بمزاولة التفكير النقدي الأدبي المستجد ، والذي لا سبيل إلى إغفاله في هذه المناسبة أن جلّ النقاد العرب الذين يعتبرون من المؤسسين الشرعيين للتفكير النقدي الأدبي الحداثي ، لم يستطيعوا مغادرة الإشكاليات النظرية التي تعتمد منهاجا لتغطية نفس المنطلقات النظرية التي ستظلّ تؤسس لحداثة نقدية أدبية عربية من الأعسر عليها أن تكتمل أن تتبلور بعيدا عن مشاكلة الثقافة الأدبية العربية الجديدة لصورة حركية الواقع العربيّ على جميع أبعاده .

وبحسب ما استقرّ في علمنا من التقديرات النظرية للمسائل المتعلقة بموضوع أثر النزوع الاصطلاحي في التفكير النقدي الأدبي العربيّ المعاصر فإنّ بعض إشكال تأسيس رؤية المنطلق قائم على مدى استيعاب التفكير النقدي العربيّ لخصوصيات المسائل التفكيرية في ذات الحقل والتي يجب على الوعي النقدي أن يميّز ما بين صورها وقيمها الثابتة منها والمتحوّلة المتغيرة ، خاصّة وأنّ الأمر متعلّق بمسائل ثابتة يفرض انتماؤها المعرفي الإنساني طبيعة خضوعها لنمطية تفكيرية لا سبيل إلى تجاوزها باعتبار تلك القيم والأفكار والمبادئ ممثلة لهوية حسية لا سبيل إلى تبدّلها ، ونعني بالقيم الثقافية الثابتة تلك القيم التوقيعية التي تتوشّح بها مختلف القيم التي تعتمد سبيلا للتعبير الفني والجمالي ، لأنّ ما كان من تلك الدّوات والأفكار صادرا عن حقيقة حسية وهي المتّصلة بالروح والحسّ والشّعور فلا سبيل إلى تزويرها بل الأحرى من ذلك

السّهر على احترام دوام سيرورتها بين التّجارب الفنية سواء القديمة منها أم الحديثة ، غير أنّ الإشكال الذي يجب الاضطلاع بمناوشته قائم في موضوع متحدّد بطبيعة زاوية الرؤية أو طبيعة التّناول حيث يقوم التفكير العلمي المنهاجي المشتغل بتداول النّظريات النّقديّة الأدبية الحديثة ببحث التفهّمات الموضوعية الملائمة لطبيعة الرؤية النّقديّة الجديدة ، وبناء على السّعي الحثيث لبذل جهود تفهّم ما يكتنف هذا الطرح الشائك فقد اضطرب نقاد الأدب العربي خاصّة منه الواقع في دائرة الاهتمام الحداثي في تحديد الوظيفة اللّغوية ، لأنهم باتوا يدركون أكثر من أيّ وقت مضى أنّ الغاية الإبداعية الحداثيّة التي هي تركّز عميقا في استنهاض القيم التّوقيعيّة الأصيلة سيمرّ بالضرورة باسترجاع الأدبية العربيّة الحداثيّة للتراث اللّغوي العربيّ ولكن بصورة تكون أكثر استيعابا للمفاهيم والأدوات المرجعية الحقيقيّة انطلاقا من صورتها الأدائيّة الأولى التي أنتجت التّموذج الأدبيّ الجاهليّ .

وبحسب ما اجتمع من وعي الظاهرة النّقديّة الاصطلاحية التي من أبرز غاياتها أن تتلبّس إشكالات الثقافة النّقديّة التّنظيرية فإنّ الناقد الأدبيّ العربيّ الذي اختصّ بمزاولة هذا النّهج الإجرائي قد أصبح في أوثق تجلياته الثقافية يشترط ضرورة الإلمام المعرفي الشامل لتحوّلات القضية النّقديّة الواحدة ، لا لشيء إلاّ لأنّه يعتقد أنّ لإحكام المعرفة اللّازمة بسيرورة القضية الاصطلاحية الواحدة متطلّبة لمجموعة من المعارف المنهاجية التاريخيّة المتتابعة والتي لا يمكن القفز على مراحل تكوّنها التاريخي ، إذا فلا سبيل لحرق المواقف والمراحل والأجدر بكلّ ساع ذات المسعى أن يستوعب الثقافة النّقديّة الأدبية المحكومة بقيم تحوّلية ثابتة في الموضوع النّقدي الواحد ، والتي لا يمكن

إغفالها، وقد أسموا تلك المزاولة بالرؤية النقدية الشّمولية¹¹⁷ ، وقد يتأكد هذا المسار الاستيعابي حينما يتعلّق الأمر بالثقافة النقدية الاصطلاحية حين نعي حقيقة المصطلح النقدي في الأدب العربي المعاصر خاصّة عندما يتعلّق الأمر بتتبّع ظاهرة نقدية مسكونة بفاعلية التحوّل الثقافي الذي من دواعيه أن يظلّ مرتبطاً بحركية الإبداع الفني .

ولذلك فقد كان من أبرز المظاهر النقدية الاصطلاحية التي لامست هذه الغاية مسألة المفاضلة النقدية الاصطلاحية ما بين قضيتي الصّورة الفنية أو الصّورة البلاغية وهما مسألتان منطرحتان بكل ضرورة وجدوى من حيث مدى وظيفتهما ونجاعتهما في تحريك كثير من الفعاليات التفكيرية في حلّ الدّراسات النقدية الأدبية الحديثة ، فلقد بات النقاد العرب محتارين أمام صيغة التناول النقدي التي يفضلونها حيال المستجدّات الإبداعية الأدبية خاصّة ما قد يتعلّق منها بالمذاهب الفنية المستجدّة في حيّزي ابتداع الشّعْر أو النثر القصصي والروائي العربيين الحديثين.

ولأنّ الأداء الذي هو متعلّق بحسب تصوّرنا باللغة والأساليب وآليات التعبير الأدبي العربية بقيت راسخة المرجعيات بينما تنامت القناعات النقدية النظرية والتي يحتلّ منها النزوع الاصطلاحي مجالا معتبرا ، ولم يجد النقاد العرب أفضل وسيلة لفضّ إشكالات الخلافات الثقافية إلّا باللّجوء إلى علم المصطلح النقدي الذي أمّد الثقافة النقدية الأدبية الحديثة بمسوّغات الاشتغال على مقوّمات الرؤية النقدية الأدبية المندرجة في إطار روح الرؤية التّحديثية التي صارت الثقافة الأدبية العربية تتحمّس لتبنيها، وتبعا لهذا الاهتمام قد غدا

¹¹⁷ ينظر ، سعيد بن زرقّة ، الحداثة في الشّعْر العربيّ ، أدونيس نموذجا ، ص: 143

التفكير النقدي العربي منساقا وراء استنهاض الاهتمام البالغ الفعّال بما يسمّى
بنظرية الأدب¹¹⁸.

7 المائز المنهاجيّ بين المصطلح النظري والاصطلاح التطبيقيّ :

ونرى أنّ من الجدير والأنسب خلال هذا الموضوع من سياق بحث الأثر
الاصطلاحي في حادثة النقد الأبي العربيّ أن نسرع إلى التمييز ما بين سياقين
علميين فيما يتعلّق بالإجراء النقدي الاصطلاحيّ ألا وهما سياق المصطلحات
النقدية النظرية ، والآخر هو سياق المصطلحات النقدية الأدبية التطبيقية .

ونرى أن الاختلاف بين جدوى النمطين الاصطلاحيين المذكورين يكمن
في كون المصطلح النقدي النظري عامّا شاملا يتمتّع بالرؤية النقدية التنظيرية
المتعلّقة بتذليل التفكير النقدي التعريفي المتّصل بالقضايا النقدية المدرسية
والفلسفية والمذهبية ، ويكاد ينحصر في معجمية هي أكثر أسبقية في تداولية
الثقافة النقدية الأدبية العربية الحديثة ، ووفقا لهذا الاختصاص المنهاجي فقد
أفينا مجموعة من المفكرين والنقاد العرب يختصّون في تأليف الموسوعات
العلمية والثقافية المتعلّقة بميدان الدرس النقديّ الأدبي مثلما تجسّد ذلك الإنجاز
العلمي لدى نبيل راغب الذي شمل التجربة وعرفّها ونظّر لها انطلاقا من كتابه
الموسوم بـ "موسوعة النظريات الأدبية" ، وقد تمحور الاهتمام البحثي حول
القضايا النقدية النظرية الجوهرية من مثل المفاهيم التالية: الأسلوبية ،
الأنثروبولوجية ، الانطباعية ، التجريبية ، التجريدية ، التعبيرية ، التفكيكية ،
التكوينية ، التلقائية ، الجذرية ، الحداثيّة ، الرمزية ، وكلّ ما يمكن أن يندرج

¹¹⁸ : ينظر ، د. ميجان الرويلي ، د. سعد البازعي ، دليل الناقد الأدبي ، ص: 183

من التسميات الاصطلاحية التي تقع في ذات نسق الاهتمام ، ومثلما هو ظاهر من خلال استقراء العينات الاصطلاحية فإن الجهود النقدية الموسوعية التي تبنت وجهة معجمية على شاكلة ما ألفينا لدى نبيل راغب فإن هذه الرؤية العلمية ظلت أسيرة المعرفة النقدية الأدبية التقليدية تبعاً لكونها اشتغلت على تقديم المصطلح المذهبي أو المدرسي الغربي ، أضف إلى ذلك فإن جلّ الجهود المبذولة في هذه المحطة الترجمية من سياق الثقافة النقدية الأدبية ظلت تحتشد حول الرؤية الإبداعية أي تلك التي تقدّم التعريفات الفكرية والفلسفية والعلمية أو الاجتماعية والسياسية لمذاهب إبداعية عالمية معروفة ، والتي لاشكّ في أنّها كانت من بين المبادرات الأدبية الرائدة في تجريب تحديث الأدب العربي الجديد¹¹⁹.

ولقد كان جديراً بهذه الجهود النقدية الاصطلاحية التعريفية أن تغرف من معين فورة الصّراعات السياسية والمذهبية التي غدت أولياً أدب الحداثة العربية إذ (... لا شكّ أنّ النقد الأدبي قد عانى التناقض الحتمي بين مختلف الأيديولوجيات لأنّها تفترض في نفسها دائماً أنّها عقائد يقينية لا تقبل التشكيك أو الجدل أو الالتقاء في منتصف الطريق ...)¹²⁰.

وبالنظر إلى ضرورة حصول التوافق الإجرائي بين المصطلح النقدي وبين الظروف الثقافية والمعرفية التي أوجدته ، فإنّ الخصوصية الاصطلاحية قد تتخذ من تلك المناسبات التوليدية قيمة معرفية بالغة الحساسية ، لأنّ هناك مصطلحات ولدت مثلاً وسط ظروف فكرية ستظلّ تطبع القيمة التداولية

¹¹⁹ : ينظر ، د. ميجان الرويلي ، د. سعد البازعي ، دليل الناقد الأدبي ، ص: 84

¹²⁰ : د. ميجان الرويلي ، د. سعد البازعي ، دليل الناقد الأدبي ، ص: 84.

اللائطة بالمسوّغ الظرفيّ الأوّل الذي أنتج الفكرة النقدية المتركَزة في صيغة التسمية الاصطلاحية وهذا (... التّوليد في اختيار ألفاظ اللغة أو توزيعها أو تحويل علاقة بعضها ببعض كما في الجهاز هو الذي يسمح بأن نستخرج من النّمت التّعبري المتواضع عليه صورة جديدة إمّا بخرق المألوف أو باللّجوء إلى ما ندر من الصيغ ...) ¹²¹.

لذلك يبدو أن من أسرار إنتاج الصيغة النقدية الاصطلاحية أن تكون الصيغة اللّغوية المحتضنة للمسمّى الجديد متمتعة بقابلية للانعزال عن صيغ الاستعمالات اللّغوية التّعبرية العادية ، وبالتالي فإنّ في إمكاننا تصور مدى الإشكال اللاحق بهذا الاعتبار الانتخابي لجذر المادّة اللّغوية المشتقّ منها المصطلح النقدي (... فهذا التّصرّف في كسر المألوف إنّما هو ضرب من الاصطلاح الجديد الذي يقوم تلقائياً بين واضح الدّصّ ومتلقّيه ، ولكنّه من جنس الاصطلاح الذي لا يطرد ، لأنّه ليس من طبيعة المواصفات اللّغوية الأولى...) ¹²²

لقد كان إشكال عثور التفكير الأدبي النقدي العربيّ على مصداقية المولج إلى ثقافة الحداثة عاملاً من عوامل الاستعانة بما يشبه تبني الموقف السياسي الذي من خصائصه الإجرائية أن تتحدّد فعاليته الوظيفية من خلال إعلان ما يمكن أن يشبه البيان الثقافيّ ، وهو عين الإجراء الذي تبناه أدونيس في إصراره على نهج خطّ الحداثة الأدبية عبر شقيها الإبداعي الخطابيّ والتّنظيريّ ، ولم يكن نزوع أدونيس هذا المنزع بوارد مورد العبث ، بل كان يحضر وفق

¹²¹ : د. عبد السّلام المسدي ، النقد والحداثة ، ص: 41

¹²² : د. عبد السّلام المسدي ، النقد والحداثة ، ص: 42/41.

منظور ثقافي يأخذ المعطيات الواقعية العربية بعين الاعتبار ، فقد عجز المبدعون العرب في بذل أسباب مداخله الإجراءات التحديثية بالنظر إلى ما كانوا يفتقدون إليه من مبررات واقعية تغطي مرحلة الانتقال على الأقل ، لذلك ارتأى كثير من المنظرين لمبادئ تحديث الحياة العربية بكل مستتبعاتها الحركية أنّ الحداثة هي إشكالية المجتمع العربي¹²³ الرئيسة .

ولعلّ أهمّ مصداقية استحوذ عليها مشروع الحداثة الأدبية العربية هو ورود المورد الأنسب بالنظر إلى الحوافز الواقعية التي كانت تدعو الحسن العربي والوعي معا بالحاح لتجريب هذه النقلة ، هذا وربّما كان من بين ما سهّل بعض مظاهر الاندماج في فلسفة الحداثة العربية أنّ الأدبية العربية منذ تجاربها الأولية القديمة مسكونة بالتّحفّزات والموثبات التي تكرّس الذوق الفنّي والجماليّ المتجدّد ، فبوقوع الأدبية العربية هذا الموقع المناسب من آليات تطلّب الحداثة كان النّزوع إلى مجاذبة معالمها التفكيرية والإبداعية سبيلا لتسهيل مراحل الانخراط في هذه الفلسفة العالمية الإنسانية التي لا بدّ من أن يعترف الباحث بأنّها صارت تفرض نفسها على كلّ الثقافات الإنسانية الجديدة، وقد نكون في غنى عن أن ندلّل على مدى ارتباط مفهوم الحداثة بالمعاصرة والحضور في الشّروط الحضارية للواقع الحياتي العربيّ الجديد.

إنّ أهمّ قاعدة يستند إليها المنظور النقدي الحداثي في نظرنا هي تلك الحركية الدّائمة والتّغيّر والتّجدّد المتواصلين بدون انقصاص أو انقطاع ، لذلك تبدو لنا نظرية الحداثة من هذه الزاوية وسيلة حياة لا يستطيع الوعي الإنساني

¹²³ : ينظر ، أدونيس ، علي أحمد سعيد ، فاتحة لنهايات القرن ، دار العودة بيروت لبنان 1980 ، ص:

الحديث أن ينتمي بصدق إلى روح العصر دون أن يمرّ بآلياتها الثقافية والإجرائية.

ونحسب أنّ الحاجة إلى توظيف ثقافة الاصطلاح النقدي صار بإزاء هذه المطالب الثقافية والمنهجية المطلب الأعزّ الذي صار ينظر إليه على أنّه الورقة الراححة في التّحكّم في مداخله الموضوع ، وتبعاً لتحسّس النقاد هذه المزية الثقافية المتعلّقة بتوظيف ثقافة الاصطلاح فقد دأب النقاد الحداثيون على ترسيخ تقاليد المقولات النقدية ، وربّما من العبث خلوّ الدراسات النقدية الحداثيّة من توظيف معجمية اصطلاح النقد الأدبي ، وقد تمادوا في ذلك المتوجّه وحرصوا عليه إلى درجة صار يظنّ بأنّ مسألة ثقافة الاصطلاح النقدي صارت تشكّل عقدة يستحيل على الخائض لغمار التّداولية النقدية الحداثيّة أن يفتقد آليات إجراءاتها النّظرية والتّطبيقية معا ، ولنا ان نلتفت متفكرين إلى طبيعة المشكلة ما بين توظيف المصطلح النقدي في الرؤية النقدية الأدبية الحديثة وبين ما بات يوازيه من شأن توظيف مفردات المعجمية الأسطورية في حركة الشّعر الحرّ أو ما يسمّى شعر التّفعية ، حيث انتهج كلاهما مؤدّى يمكن القول عنه بأنّه مؤدّى إغرابي يحاول بثّ الإطراف والجذّة والمغايرة.

8-خصائص تجليات النزوع الاصطلاحي :

يستطيع الذي يتعمّق المسارات النقدية الحديثة أن يقف ملياً على العيّنات الإجرائية التي اعتمدها الناقد الأدبي الحداثي الساعي إلى تأسيس القيم والمفاهيم النقدية الجديدة ، فلقد ظلت الموالج الثقافية متسلّحة بالتّحفّرات المعرفية التي

بقيت دوماً في حال هجوم أو استنفار إيديولوجي يفرض نفسه على التجربة من خارجها.

ومن ثمة وبناء على مدى حساسية ثقافة الانتقال فقد ظلّ الناقد الأدبي العربيّ يراوح بين المصطلح الجديد وبديله التراثي ، لذلك فهو يلجأ دائماً لتقديم المصطلح التراثي بصفة داعمة ومقوية للموقف التجريبي الذي ما فتئ النقد الأدبي الاصطلاحي عالقا فيه ، ويبدو لنا واضحاً أنّ النقد الأدبي لم يتخلص من الأدوات النقدية الأدبية البلاغية التراثية بل ظلّ في أعوص الأحوال يتسلّح بمصداقيتها ، لذلك فهو لا يقدّم مفهوم الدرامي مثلاً إلا مرادفاً لمفهوم العاطفي ، لعلّ الصيغة الجديدة منهما تستظلّ بمكانة الأولى¹²⁴ ، وتبعاً لمجمل الفرضيات التي يحتملها تبني المصطلح النقدي أو الإبداعي فإنّ التفكير النقدي الأدبي العربيّ المعاصر في أوليات نهوضه التكويني ظلّ عائماً غائماً يلجأ إلى تكثيف المترادفات الاصطلاحية فتأتي سراعاً تبعاً ، كأن يستعمل المقولات النقدية الاصطلاحية التي تنتظم وفق السياق الوظيفي التحليلي التالي: التعبير الدرامي ، التفكير الدرامي ، درامية التفكير الشعريّ ، الغنائية الفكرية ، المنهج الدرامي ، الفكرة الدرامية ، التعبير الدرامي ، البنية الدرامية ، الطابع الدرامي¹²⁵ ، ويتّضح لنا لدى تأمل السياقات الوظيفية الإجرائية التي تلون بها لفظ الدرامي بأنّ الناقد العربيّ المداخل لثقافة الحداثة النقدية الجديدة قد ظلّ يمارس ما يمكن أن نسميه النقد التحليلي الإنشائي الذي لا يتقيد بمعالم أكاديمية ثابتة ، فهو يتّخذ من المفردة النقدية المحورية : الدرامية سبيلاً لبث الكثير من

¹²⁴ : ينظر ، دجّزّ الدين إسماعيل ، الشعر العربيّ المعاصر ، ص: 281/280.
¹²⁵ : ينظر ، دجّزّ الدين إسماعيل ، الشعر العربيّ المعاصر ، ص: 285/284.

التوصيفات النقدية التحليلية التي تحاول أن تتمركز حول الدلالة الأدبية القريبة من الوظيفة البلاغية التقليدية .

لقد أفضى بالنقاد تحسّسهم لشروط الثقافة النقدي الاصطلاحية حسب المتطلبات الإجرائية الجديدة إلى تجريب من التجريب الاصطلاحي الذي يحاول أن يواكب شروط الكتابة النقدية التحليلية الجديدة ، وقد انخرطت التجارب النقدية في شبه سلسلة من التداعيات الاصطلاحية التي تأتي في شكل ثبت عنوانيّ من مثل: الانفصال ، الاتّصال ، الصورة الانتشارية¹²⁶ .

وبناء على تفهّم الإشكالات المنهجية التي اضطرت فيها أوليات التجريب النقدي الأدبي العربيّ الاصطلاحي فإننا نتفهم معطيات هذه المرحلة التي شكّلت هواجس التأسيس النقديّ على أنّها كانت تستهدف من بين ما تستهدفه في مشاريعها الثقافية والعلمية تكريس آليات استعمال المعرفة النقدية الاصطلاحية حيث كانت توظيف المصطلح يحتاج إلى ترسيخ آليات التداول الإجرائي ، ومن ثمة فإنّ استعمال المصطلح خاصّة في الاعتبارات النقدية الاصطلاحية قد بات محتاجاً لجملة من المسوّغات المنهجية التي تخوّل للناقد السائر في رحاب التجربة الأدبية الجديدة أن يبحث عن بسط أسباب التقبل لدى القارئ ، فالقارئ العربيّ لم يعد ساذجاً غفلاً بل أصبح محط تأثيرات ثقافية عالمية هي التي كانت تستوجب على الناقد العربيّ الجديد شرط الاستعمال الصّحيح والدقيق لآليات النقد الأدبي الاصطلاحيّ .

¹²⁶ ينظر ، محمّد لطفي اليوسفي ، في بنية الشّعر العربيّ المعاصر ، ص: 92/91/90.

9- نزوع النقد الأدبي الإجرائي التطبيقي :

يبدو للباحث في سيرورة بحث إشكالية المصطلح في النقد الأدبي العربي المعاصر أنّ المؤدّى السياقي الذي تأسست عليه الرؤية النقدية الأدبية العربية الحديثة كان مفروضا عليه أن يتمحور عبر مؤدّيين رئيسين أمّا الأول فيتمثل في الكتب النقدية التي أخذ أصحابها على عاتقهم مشروع التأسيس النظري للإشكالية ويتمثل الثاني من ذينك المنهاجين في الاضطلاع بتمحيص الإجراءات النقدية الأدبية التطبيقية وفي كلتا الحالتين فقد وجد الناقد الأدبي العربي نفسه منساقا وراء تكريس الثقافة النقدية الجديدة وفق التّصورات الفكرية التي كان لزاما عليها أن تظلّ مقترنة بمعطيات المرحلة الحضارية والفكرية التي تتمخّض تباعا عن حاضر الأمة العربية عبر مشاريعها القومية التي غالبا ما كانت تتبنّى في طروحاتها الثقافية والفكرية أنموذج القرار السياسي الثوري ، وبناء على إفراط الأديب العربي في تحسّس هذا المنزع المناسب فقد تفاعلت عبر ذلك الالتزام قيمتان حضاريتان نراهما غالبتين على روح هذه المرحلة من ثقافة هذا العصر ، فقد تجاوبت خلال ذلك التصاهر جملة من التّصورات الإبتداعية كانت تقوم على الرؤية الاستباقية التي تحاول أن تنظر للمشروع العربي القومي وفق نظريات بعض الرّعماء العرب ومن ثمة فإننا نتصوّر أن لا أحد يقوى على إنكار ما كانت تتمتع به الثقافة العربية في القطر المصري تبعا لعدّة فرضيات قومية ظلّت تمنح الناقد الأدبي المصري بجملة من مقومات النهوض والظهور والريادة ، وقد لا يكون داعيا إلى التذكير بأنّ الحسّ القومي العربي قد كان سببا في إطلاع أو إنتاج جملة من القناعات الأدبية والفنية على العموم ، لأنّ في إحساس الأديب العربي بقوى

التَّحْدِي كان ينتج لديه إحساسا بتبني المواقف النضالية التي غالبا ما كانت الدّاعي الأقوى لشيوع الإجراءات النقدية الأدبية الاجتماعية ، وقد كان النظر النقدي خلال مراحل هذا الالتزام السياسي والاجتماعي ميّالا لتبسيط الرؤية النقدية والميلان بصورة أكثر وضوحا عن تبني القضايا الفنية والجمالية وربما كان تشبّع الأدبية العربية الجديدة بروح النضال والمقاومة سببا في ظهور كثير من المواقف الإبداعية والنقدية معا ، فقد شهدت المرحلة إياها ظهور روح المروق والتّجاوز والمغايرة بحثا عن صيغة ثقافية تحرّر الفرد العربيّ من الأوهام التّجزئية السابقة .

وقد لا يقوى واحد من الذين تناولوا خصوصيات هذه المرحلة من نكران فضل ما أدّى إليه التشبّع بالقناعات السياسية التي ملأت دنيا الناس في هذه المرحلة من سيرورة التّحوّل الحضاري العربيّ ، فقد كان لقوّة حسيّ الثورة والتّنوير ، وهما الطّاقتان الكبريان اللتان تساند إلى فورتيهما الغلابتين عصر التّنوير ، الدّاعم الأقوى في إثارة روح الثورة الفنية وقد تنامت هذه الروح حتّى صارت غالبية على ما سواها من النّزوعات الفردية كيفما كان صدورها الثقافي أو العاطفيّ .

وبصورة أكثر دقّة وانسجاما مع حقيقة التّحوّلات الثقافية والأدبية التي ميّزت هذه الفترة من تاريخ الأدبية العربية فقد اندمج هذا الحسّ التّحرّريّ الغالب على حركية المجتمع العربيّ مع جملة من الطّروحات الفكرية والنقدية ظلّت توفّر للناقد الأدبي العربيّ الجديد المونل الأكثر مناسبة لبذل أسباب المغايرة الأدبية وربما ذهب بعض الباحثين إلى تسمية هذا النّزوع التّنويعيّ التّجديدي في حيّز الثقافة العربية الجديدة على أنها ضرب من المغايرة عن

طريق (... التنوع البارع في معالجة موضوعات هي على قلة عددها أساسية ونموذجية المثال) ¹²⁷.

وقد نملك من مثل هذه البراهين ما يصدّق في الذات الأدبية العربية رسوخ روح التحوّل بما يكفي التّدليل عليه من خلال بعض العيّات الثقافية التي تؤكد هذه الوجهة وتصدّقها خاصّة وأنّ مرحلة ابتداء الحداثة كانت ناشئة عن حسّ بالتأزم حادّ سكن كلّ أنحاء الوعي المعرفي العربيّ وصار بعدها يتشظى إلى كلّ غاية اجتهدانية أو تطوّعية ظلّت تنقذف في كلّ الاتجاهات والأنحاء حيث أفضى هذا الاحتيار ببعضهم إلى القول: (... إنّ المشكلة التي نتحدّثها اليوم تتجلّى في أدبنا الحائر ، وفي فكرنا المضطرب القلق من نحو ، وفي أدبنا ومفكرينا الحيارى من نحو آخر ... إنّ المشكلة التي نعانيها اليوم هي أنّ أدبنا وفكرنا في أزمة ...) ¹²⁸.

ونعتقد أنّ أصوب تقدير للمأزق الذي تخبّطت فيه الأدبية العربية لهذه المرحلة ناشئ عن أزمة هوية واختصاص تاريخي وجغرافي أنتجه حسّ التلاحم الحضاري العالمي الذي ماز مرحلة التأسيس لحداثة الأدب العربيّ الجديد حيث ظلّ الفكر العربيّ يبحث عن الصيغ العملية الكفيلة بالاشتغال على توضيح القيم والمفاهيم والمذاهب ¹²⁹ ، فقد أتى تأليف أدونيس ، علي أحمد سعيد الموسوم بالثابت والمتحوّل تكريسا لهذا المسار التبديليّ التغييريّ الذي

¹²⁷ : أتيان سوريو ، الجمالية عبر العصور ، ترجمة. ميشال عاصي ، ط:1 دار عويدات بيروت لبنان ، 1974 ، ص:186

¹²⁸ : د. سعد صائب ، مرايا أدبية ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، مؤسّسة الوحدة للصحافة والطباعة والنشر ، دمشق 1979 ، ص:40

¹²⁹ : ينظر ، د. سعد صائب ، مرايا أدبية ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، مؤسّسة الوحدة للصحافة والطباعة والنشر ، دمشق 1979 ، ص:38

ظلّ يتبنّى المغامرة الثقافية الكبرى ، فقد أتى نظره هذا مصداقا لتثبيت وجهة الثقافية النقدية ١ لأدبية العربية الجديدة ، وهو أي أدونيس إذ يعول على بناء نظرية تستصفي حسّ الإبداع العربيّ قارئاً إياه من خلال سياقات التجريب الأدبي العربيّ عبر العصور الطويلة فقد هيمن تبعاً لهذا المؤدّي التنظيري توجّه تفكيري يعول ملياً على إبراز المواقف والأفكار ونقدها من خلال ضبط آليات قواعد الإبداع العربيّ التي تصبّ روحها في ما يمكن أن يسمّى بالتجاوز (والحادثة الحقيقية هي في الإبداع لا في المنجزات بذاتها) ¹³⁰

وخلال استغراق التفكير النقدي الأدبي لمقومات مشروع الحادثة الأدبية العربية الجديدة فقد سعى كلّ ساع وراء بلورة هذه الرؤية النقدية إلى استمداد الدّعائم العلمية والمنهجية وقد كان علم الاصطلاح النقديّ أحد أهمّ سمات هذا الإنجاز ، ولعلنا لا نغالي أو نبالغ إذا قلنا : إنّ ناقدا مضطلعا بتبيين ثقافة الحادثة الأدبية قد كان لزاماً عليه أن يتسلّح بالمقومات العلمية والإجرائية التي كانت كفيلة بأن تمده بأسباب الذبوع والتّفوق ، فقد كانت المصطلحات الأدونيسية الحداثيّة بمثابة الحجر الأساس التي بنيت عليه نظرية النقد الأدبي العربيّ الحداثي ، وبالرّغم ممّا أخذ به نقد أدونيس للأدبية العربية قديمها وحاضرهما فقد ظلّ يهيمن بصورة أكثر وضوحاً على الكثير من أوجه الفاعلية الثقافية ، وقد شكّل المصطلح النقدي الحداثي بالنسبة له الحتمية الواقعية من الاحتجاجات الثقافية التي غالباً ما كانت تؤاخذ بالمغالطة في تقديم الوجهة الدينية بالنّظر إلى اعتبارات مذهبية أو أيديولوجية بحتة ، ويجدر بنا أننّذ أن

¹³⁰ أدونيس علي أحمد سعيد ، الثابت والمتحوّل ، الأصول ، ط:3 ، دار العودة بيروت لبنان ، 1980
ص: 31

نذكر بمدى الآثار الارتدادية التي أثارها مصطلحا الثابت والمتحوّل في الساحة الثقافية والأدبية العربية التي كانت في أوج تهيئها لولوج ثقافة الحداثة النقدية ، غير أننا واحتراما للترتيبات المنهجية التي ارتأينا تصنيف الصيغة الاصطلاحية وفقها فإنه يكون جديرا بنا الإشارة إلى مدى ارتباط وظيفة مصطلحي الثابت والمتحوّل بالمقومات النظرية لا التطبيقية فقد كان هذا النمط من الإجراءات الاصطلاحية العامّ الشامل القائم على الرؤية النقدية الشمولية يوقر المناخ العامّ الذي من شأنه أن يخدم المبررات الفكرية والمنهجية التي تسوّغ للمثقف العربي الاستتجاد بعلم المصطلح سبيلا لإرساء الرؤية النقدية الأدبية الجديدة .

وبالموازاة مع ما طرأ على خصائص التفكير النقدي الاصطلاحى فقد وجد الناقد الأدبي العربي المداخل لفرضيات التفكير النقدي الأدبي الحديث نفسه مضطرا إلى تجريب آليات ثقافية جديدة خاصّة منها تلك التي تتعلق بالمباحث الفنية والتقنية ، وعلى سبيل المثال فقد كان حقل الدراسات البلاغية والإيقاعية يحتم على الباحث الأدبي أن يتخصّص أكثر في الجوانب الفنية والتقنية المتعلقة بالمسائل البنائية والأسلوبية ، فقد طرأت على المعارف المندرجة تحت هذا الاختصاص من المعرفة الأدبية مكونات علمية هي أميل للممارسة التطبيقية والمخبرية ، وتبعاً لذلك فقد صار الدرس العروضي النقدي التطبيقي يحتاج إلى تحولات معرفية مناسبة لمقدّرات الرؤية الثقافية الطارئة خاصّة بعد أن تبين أنّ النظر النقدي القديم صار لا يلبي المطالب المعرفية التطبيقية وربّما حدث ذلك لبعده الأجيال العربية الجديدة عن المنابع المعرفية

العربية التراثية ، وقد تطلب هذا الانزياح الزماني استعدادا منهاجيا ثقافيا يتلاءم مع مقدّرات المرحلة الثقافية العربية .

وإذا ما سعينا إلى تحديد التحوّلات المعرفية والثقافية المتعلقة بالإجراء الاصطلاحي خاصّة في حقول الدّراسات اللّغوية والفنية والجمالية فإننا نلاحظ مدى التقارب أو الامتزاج بين الدّراسات اللّغوية والدّراسات العروضية والبلاغية والإيقاعية وهو ما كان قمينا بأن يستتبع جملة من الاهتمامات البحثية خاصّة منها تلك التي تتعلّق بالدّرس اللّساني والصّوتي والأسلوبي ، وقدظنّ المنهجون للدّراسات اللّغوية النقدية الجديدة بأنّ الركود بسبب من عدم التّجديد في منهجها ، (... فما ورثناه عن آبائنا من خلط في التفكير اللّغوي لا يزال كما هو...)¹³¹.

وماذا عسى أن يبقى للمتفكر بعد أن يفتقد في آلياته الأدوات الإجرائية الكفيلة بالنّهوض بسداد الرؤية ونجاعة التفكير ؟ ، وقد يكون من الأنسب والأفيد في هذه المناسبة أن ندلّ على أنّ جلّ العلماء والمفكرين الذين اضطلعوا بانتاج هذه المعارف النقدية التّطبيقية التّجريبية كانوا قد استمدّوا ثقافتهم المنهاجية انطلاقا من احتكاكاتهم المباشرة مع الثقافة الأجنبية إما دارسين أو متكوّنين ، أو موفدين إلى هناك ، ونحسب أنّ العلماء اللّغويين الذين اهتمّوا بهذا التّوجّه وتبنّوه كانوا يذكّرون في كلّ مناسبة بمدى أصالة الوجهة التّحديثية

¹³¹ : ينظر ، د.تمّام حسن ، مناهج البحث في اللّغة ، دار الثقافة للنّشر والتّوزيع ، الدار البيضاء ، 1986 ، ص:12

أو التجديدية فقد ظلّوا دائماً يتساندون إلى تقوية موقفهم بالتركيز على توكيد مدى تأصل منهاج التجديد والتحديث في الثقافة الأدبية العربية القديمة¹³². ويبدو أنّ التركيز على المصطلح ظلّ المحور الرئيس الذي تسير حوله الرؤية الثقافية الاصطلاحية الجديدة ، وبناء على ذلك الاختصاص البحثي فقد صادفنا علماء الدرس اللغوي النقدي يصدّرون مؤلفاتهم بصيغة معجمية للتعريف الاصطلاحي أو الترميزي لا يمكن الاستغناء عنه في كلّ الأحوال ولعلّه الإجراء الأكثر حداثة الذي تتطلبه المعرفة المخبرية¹³³.

¹³² : يمظر ، د.تمّام حسن ، منهاج البحث في اللغة ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ،

1986، ص: 13

¹³³ : ينظر ، المرجع نفسه ، ص: 17/16

الخاتمة

لقد نحونا في بحث إشكالية المصطلح النقدي في الأدبية العربية المعاصرة نحوا من التفكير البحثي الذي أثار لدينا جملة من الاهتمامات الملحة كان إمساسها كفيلا بأن يقذف في فكرنا جملة من التساؤلات المنهاجية البالغة الحساسية خاصة منها ما قد يتعلّق بمدى نجاعة الوظيفة الاصطلاحية في حيّز النقد الأدبي العربي ، لالشيء إلا لكون الوظيفة النقدية الاصطلاحية متّصلة بالتركيز العلمي الذي من طبيعته اختصار الفكرة أو الإخلال بجوهر حقيقتها الإمتاعية.

ولعلّ كلّ باحث عربيّ قارب هذا المنزع البحثي لا يقوى على ردّ ما مؤدّاه أنّ الأدبية العربية مسكونة منذ بداياتها الأولية بالممارسة الانطباعية العفوية فالموضوعية الأدبية غير الموضوعية العلمية وكذلك ارتأينا تبينها خلال فصول بحث إشكالية المصطلح في النقد الأدبي العربي المعاصر ، وإنّ الأدبية العربية بانفتاحها على التجارب الغنائية قد باتت تخشى العلمنة والتدقيق المنطقي باعتبار هذين المناطين كفيلين بأن يذهبا بكثير من درجات الإمتاع الفني والجمالي .

والتناقض إذا بات قائما بين الوظيفتين العلمية والجمالية وأحرى بالنقد الأدبي الحديث والمعاصر أن يبحث عن آليات أدائية كفيلة بأن تجنّبه مخاطر الوقوع في أزمة الهوية الجمالية والفنية.

وأيّ شيء يبقى للنقد الأدبي العربيّ إن هو لم يعد للتنبّت من الهوية اللغوية البانية للصيغة الاصطلاحية ، فالمصطلح النقدي الأدبي الترجمي بات

يشغل حيّزا معتبرا ولعلنا لا نغالي إذا ما قلنا لقد صار المصطلح النقدي الغربي يمارس ضربا من الإقصاء على الهوية اللغوية والتفكيرية العربية الراسخة تراثيا.

وبما أننا نرى إلى التداولية الاصطلاحية على أنها قائمة في شكل استثمار وظيفي للممارسات النقدية التطبيقية فإنّ حقل الدراسات النقدية الاصطلاحية في الأدبية العربية المعاصرة أو الحديثة باتت نجاعتها مرهونة بمدى توافر التجارب الأدبية إبداعا ونقدا على النضج المعرفي اللازم لاستثمار قوى التفكير العلمي المؤهل لإصابة تخريج المصطلح النقدي العلمي والوظيفي معا ، لأنّ أخشى ما يخشى في هذا السياق هو أن تنتابه الفوضى ويعمه الإرباك فتتفلش قواها وتنطمس آثاره وينتهي إلى اللامعقول.

ثمّ يكون من المنهجي القول بضرورة الإحالة على بحث الخصوصية الاصطلاحية من حيث اقترانها بحقول الإبداع الأدبي ، فقد لا حظنا أنّ حقل الابتداع الشعري ثابت قيامه على التفكير البلاغي الإنشائي الذي قد يضيق على الإجراء الإصطلاحي الذي من ديدنه أن يبحث عن مناخات تفكيرية قارة ثابتة ، وكذلك الشأن حينما يتعلّق الأمر بكتابة الأدب الروائي العربي من حيث هو متّصل بتقاليد بلاغية لا سبيل إلى إخفاء مدى تأثيرها في الوظيفة النقدية ، ولعلّ هذا الانشغال هو الذي يشكّل لدينا بؤرة الاهتمام في الكتابات البحثية المقبلة بحول الله .

إستدراك لبعض الأخطاء فى البحث من حيث :

- 1- الهوامش**
- 2- الصفحات**
- 3- المصادر والمراجع**
- 4- الفهرس.**

قائمة المصادر والمراجع والمجلات

قائمة المصادر

1. ابن سلام ، طبقات الشعراء ، اللجنة الجامعية لنشر التراث العربي ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر
2. ابن المعتز ، كتاب البديع ، تح: إيغناطيوس كراتشوف فسكي ، دار المسيرة ، د.ط/د.ت
3. ابن طباطبا ، عيار الشعر ، تح: محمد زغلول سلام ، دار منشأة المعارف بمصر ، الاسكندرية ، د.ط/د.ت
4. ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، تح: مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ط: 1980/1
5. أبو حيان التوحيد ، الامتاع والمؤانسة ، ج 1 ، علي الزين أحمد أمين ، دار مكتبة الحياة بيروت لبنان
6. أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني ، كتاب التمهيد ، تح: الأب رتشارد يوسف مكارثيا ليسوعي ، المكتبة الشرقية بيروت ، د.ط/ 1957
7. الجاحظ ، البيان والتبيين ، مج: 1 ، ج: 1 ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان ، د.ط/ 1968
8. عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الأعجاز ، تح: السيد محمد رشيد رضا ، دار المعرفة بيروت لبنان
9. المبرّد ، الكامل في اللغة والأدب ، ج: 2 ، مكتبة المعارف بيروت لبنان ، د.ط/د.ت
10. القزويني ، الإيضاح ، في علوم البلاغة ، مج: 2 ، تح: د. محمد عبد المنعم خفاجة ، دار الجيل بيروت ، ط: 1993/3

قائمة المراجع

1. أدونيس ، علي أحمد سعيد ، فاتحة لنهايات القرن ، دار العودة بيروت لبنان 1980
2. أدونيس علي أحمد سعيد ، الثابت والمتحوّل ، الأصول ، ط:3 ، دار العودة بيروت لبنان ، 1980
3. د. أدونيس علي أحمد سعيد ، مقدّمة للشعر العربيّ ، ط:3 دار العودة بيروت 1979
4. إلياس خوري ، الذاكرة المفقودة ، دراسات نقدية ، ط:1 ، مؤسسة الأبحاث العربية 1982
5. أنور المرتجى ، سيميائية النصّ الأدبيّ إفريقيا الشذوذ ، الدار البيضاء
6. بسام قطّوس ، سيميائية العنوان ، عمّان الأردن
7. توفيق الزيّدي ، مفهوم الأدبية في التراث النقدي ، سراس للنشر ، 1985
8. حسن ناظم ، مفاهيم الشعرية ، المركز الثقافي العربيّ ، الدار البيضاء المغرب
9. د. تمام حسن ، مناهج البحث في اللغة ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء 1986
10. د. حلمي مرزوق ، تطوّر النقد والتفكير الأبي الحديث في الربع الأوّل من القرن العشرين ، دار النهضة العربية بيروت لبنان 1982.
11. د. خليل أبو جهجه ، الحداثة الشعرية العربية بين الإبداع والتنظير والنقد دار الفكر اللبناني ،
12. د. رجاء عيد ، المصطلح في التراث النقديّ ، منشأة المعارف بالأسكندرية ، د.ط/د.ب
13. د. سعد صائب ، مرايا أدبية ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، مؤسسة الوحدة للصحافة والطباعة والنشر دمشق 1979
14. د. شكري محمد عياد : المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين عالم المعرفة ، الكويت سبتمبر 1993 ، ع177
15. د. عبد العزيز حمودة المرايا المحدّبة : من البنيوية إلى التفكيك ، عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت 1998.
16. د. عزّ الدين إسماعيل الشعر العربيّ المعاصر قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية ط:3 ، دار العودة بيروت
17. د. قاسم المومني ، شعرية الشعر ط1 مطبعة الجامعة الأردنية عمّان 2002
18. د. مصطفى ناصف ، الصّورة الأدبية دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع
19. د. مصطفى ناصف ، قراءة ثانية لشعرنا القديم ، ط:2 ، دار الأندلس 1981
20. د. ميجان الرويلي ، د. سعد البازعي ، دليل الناقد الأدبي ، ط2 ، المركز الثقافي العربي سنة 2000

-
21. د. عائشة حسين فريد ، منهج البحث البلاغيّ ، دار قباء للنشر والتوزيع ، القاهرة ط:1/1977
22. د. تبارك سلوم نظرية اللغة والجمال في النقد العربيّ ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، ط:1/1983
23. د. عبد الملك مرتاض، الأدب الجزائريّ القديم، دراسة في الجذور، دار هومه 2005
24. د. عبد السلام المسدي المصطلح النقديّ ، ط:1 ، مؤسّسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع تونس 1994
25. د. عبد السلام المسدي ، النقد والحداثة ، دار الطليعة للطباعة والنشر. بيروت ، لبنان ط1 ديسمبر 1983.
26. سعيد بن زرقعة ، الحداثة في الشعر العربيّ ، أدونيس نموذجاً ، أبحاث للترجمة والنشر والتوزيع ، بيروت لبنان
27. شكري فيصل ، مناهج الدّراسة الأدبية في الأدب العربيّ، عرض ونقد واقتراح ، ط:5 ، دار العلم للملايين 1982
28. عزّ الدين المناصرة ، الثقافة والنقد المقارن ، منظور إشكاليّ ط1 ، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر 1996
29. قضايا المصطلح في الأدب والعلوم الإنسانية (أعمال ندوة مكناس المغرب 2000)
30. محمد المبارك ، استقبال النصّ عند العرب ، ط:1 المؤسّسة العربية للدراسات والنشر 1999
31. مركز دراسات الوحدة العربية ، ندوة : اللغة العربية والوعي القومي ، ط:1 بيروت
32. مصطفى لطفي اليوسفي ، في بنية الشعر العربيّ المعاصر ، دار سراس للنشر 1985
33. مصطفى صادق الرافعي ، تاريخ آداب العرب ، ج1 ط4 دار الكتاب العربيّ بيروت لبنان ، 1974
34. مهدي أسعد عرار ، جدل اللفظ والمعنى ، دراسة في دلالة الكلمة العربية ط1 ، دار وائل للطباعة والنشر عمان الأردن 2002 .
-

قائمة المراجع المترجمة

1. أتيان سوريو ، الجمالية عبر العصور ، ترجمة د. ميشال عاصي ، ط:1 دار عويدات بيروت لبنان ، 1974
2. تزفيطان طودوروف ، الشعريّة ، ترجمة شكري المبخوت ورجاء بن سلامة ، دار توبقال للنشر المغرب
3. أندريه مارتيني ، مبادئ في اللسانيات العامّة ، تر:د.سعدى زبير ،دار الآفاق 1999
- 4.جيرار جينيت ، مدخل لجامع النصّ ،تر:عبد الرحمن أيّوب ، ط:2 دار طوبقال الدّار البيضاء 1986
5. غاستون باشلار ، جماليات المكان ، تر: غالب هلسا ، كتاب الأقلام ، بغداد. 1980
6. جمال الدّين بن شيخ ، الشعريّة العربيّة ،ترجمة : مبارك حتّون ، ومحمّد الولي ومحمد أوراغ ، ط:1 دار توبقال للنشر الدار البيضاء ، المغرب ، 1996
7. خوسيه ماريابوثيلو إيفانكوس ، نظرية اللّغة الأدبية ، تر: د. حامد أبو أحمد مكتب غريب

قائمة المراجع الأجنبية

1. Ferdinand de saussure . cours de linguistique generale/ paris payot. 1978
2. Emile. benveniste . semiologie de la langue : problemes de linguistique generale / paris; gallimard 1965

قائمة المجلات

1. مجلة الفكر تونس ، جانفي 1970
2. مجلة ثقافة التونسية ، ع: 8 صيف 1972
3. مجلة فصول ، ع: 3 أفريل 1981
4. مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس المغرب 1988
5. مجلة الفكر العربي المعاصر ، ع: 61/60 عام 1989
6. مجلة الحداثة ، جامعة وهران 1993
7. مجلة عالم الفكر ، مارس 1996
8. مجلة علامات جويلية 1996
9. مجلة علامات مارس 1996
10. مجلة علامات سبتمبر 1999
11. مجلة حوليات الجامعة ، ع: 1 / 1999
12. مجلة علامات سبتمبر 2001
13. مجلة المترجم ، ع: 1 ، جوان 2001
14. مجلة علامات يونيو: 2001
15. مجلة علامات مارس 2002.

الفهرس

الفصل الأول

- 1- إشكالية المصطلح في النقد العربي المعاصر: 2
- 1-1 سمات الإشكال في النقد الأدبي العربي المعاصر: 3
- 2-1 تاريخ النزوع النقدي الاصطلاحي : 5
- 3-1 المصطلح النقدي : 6
- 2- خصائص إبتداع المصطلح النقدي البديعي : 8
- 2-2 ملابسات المنشأ الاصطلاحي : 11
- 3-2 التأريخ لميلاد المصطلح في النقد الأدبي العربي : 17
- 4-2 الغسل والإخلاء سبيلا إلى تفعيل القيم التأويلية : 27
- 3- القيمة اللغوية والصرفية للنزوع الاصطلاحي: 30

الفصل الثاني

- 1- معترك التّصوّر الاصطلاحي : إشكال الرؤية الاصطلاحية. 34
- 1-1 الوجهة الاصطلاحية في نقد الشّعر العربي : 34
- 2-1 مداخلة النقد الأدبي العربي لفضاء الحداثة: 37
- 3-1 القيمة الوثائقية للمصطلح النقدي : 47
- 4-1 مصطلح العصرية : 52
- 5-1 حقول الاستعمال النقدي التطبيقية: 65
- 6-1 ثقافة الملاحق الاصطلاحية: 75

الفصل الثالث

- 1- المصطلح النقدي : 82
- 2- التلاؤم الدلالي بين اللغة والمصطلح النقدي : 94
- 3- الهوية الاصطلاحية للتقديرات النقدية والتّعريف: 97
- 4- أثر ثورة المصطلح النقدي في تنمية التفكير النقدي : 106
- 5- ثورة المصطلحات الشعريّة: 107
- 6- موالج الدّرس النقدي الحداثي: 114

7-المائز المنهجيّ بين المصطلح النظري والاصطلاح التّطبيقيّ : 118

8-خصائص تجليات النزوع الاصطلاحيّ : 122

9-نزوع النقد الأدبي الإجرائي التّطبيقيّ : 125

الخاتمة..... 132

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر..... 135

قائمة المراجع 137

قائمة المراجع الأجنبية 138

قائمة المراجع المترجمة 139

قائمة المجلات 140